الهروب من جنة آدم

daralmoltaqa@gmail.com

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

ردمك: 978-977-6593-14-5

رقم الإيداع القانوني: 2017/23807

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع وأي اقتباس أو إعادةطبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

المراجعة اللغوية والإخراج الفني: فريق العمل بدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: شركة أرابيسك (الحلول المتكاملة للتقنية والتصميم) arabisq1@gmail.com

القاهرة / مصر

جوال: 00201278821670

00201003528058

daralmoltaqa@gmail.com

عبير السيد

الهروب من جنة آدم

قصص واقعية من قلب المهجر

ملتقى المعرفة
للنشر والتوزيع

daralmoltaqa@gmail.com

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى والدي الذي علمني الإنسانية، إلى والدتي، إلى زوجي وأولادي، إلى وطني الكبير.

إلى هؤلاء الذين يبتعدون كل يوم بلا حدود؛ إلى الهاربين من آلام الأرض (جنة آدم) بحثًا عن الجنة المزعومة في الهجرة! إلى كل من يظن أن حقيبة الهجرة هي الحل، كتابي لا يُقرأ بالكلمات والعيون ولكن يُقرأ بالقلب.

هل نُساق إلى الغربة؟ أم تُساق هي إلينا؟

الهروب من جنة آدم مجموعة قصصية من الواقع تضع بعضًا من مشكلات المهاجرين على الطاولة وجهًا لوجه أمام الحروب، النفاق، الفساد الاجتماعي والديني والعنصرية، وأهمها الضغط الاجتماعي على المرأة لتحويلها إلى كائن هش خاضع ضعيف، المرأة هي المرأة سواء كانت عربية أم غربية؛ هي إنسان، ماذا ينتظر المجتمع من امرأة هشة مهزومة خائفة؟ إلى كل ضعيف غريب مهزوم اصنع أنت جنتك.

عبير السيد

نبذة عن الكاتبة

عبير السيد

- خريجة الآداب والتربية قسم اللغة الإنجليزية عام ١٩٩٢ وفي نفس العام غادرت إلى إيطاليا.
- مواليد الشرقية عام ١٩٧٠.
- مصرية إيطالية.
- دراسات في علم التربية للأطفال من ٠ إلى ٦ سنوات مركز بيجاسو فلورنس.
- دراسات بكلية اللغات والألسن والآداب والثقافات الخارجية (الأدب الإيطالي والإنجليزي والعربي) جامعة فلورنس.
- حاصلة على التميز في علم إدارة الصراعات والتربية العامة وثقافة السلام بلقب: مربي متخصص كلية التربية جامعة فلورنس.
- كورس عالٍ للمعلومات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية والقانون الدولي وثقافة بناء المواطنة جامعة فلورنس.
- كورس الكتابة الإبداعية بجامعة فلورنس مركز الاتنيو.
- عملت وسيطة ثقافية للمهاجرين (مترجمة) بمكتب العمل فلورنس.

- مدرس لغة عربية في العديد من المراكز الخاصة مركز جورجو لابيرا، حاليًا مركز لوريتا للسياحة واللغات. *Loretta Langues service*
- *13 Viale Lavagnini*
- *info@languesservices.com*
- العمل الأول مجموعة قصصية للأطفال باللغة الإيطالية ستنشر قريبًا في إيطاليا رسوم الأستاذة سيلفيا مريداني.
- ترجمة مجموعة قصصية للأطفال «هند تصنع الحكايات» باللغة الإيطالية للكاتبة والشاعرة (عفت بركات) بعنوان: *"LE MERAVIGLIOSE FAVOLE DI HEND" in collaborazione con Akram Omar e Alessandro Lazzaro*. تحت الطبع قريبًا في مصر.
- المجموعة القصصية (الهروب من جنة آدم) وبها العمل الفائز بجائزة ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع بمصر ضمن مجموعة (لحظات قبل موتها).
- متطوعة في كثير من الجمعيات الاجتماعية والثقافية ومراكز الاستماع للمرأة المهاجرة مثل جمعية نوذاوتراس جمعية الثقافة والإبداع، جمعية نساء من أجل السلام، جمعية الوفاق للعرب والإيطاليين، جمعية الشروق لتعليم اللغة العربية.
- عضو في الجالية الإسلامية والمصرية بمدينة فلورنس.

للتواصل *abirelsayed@hotmail.it*

شكر وتقدير

أتوجه بخالص الشكر لكل من ساعدني بالدعم النفسي أو المساعدة .

أخص بالشكر الأديب والناقد النبيل

الأستاذ/ محمد عبد الوارث – الإسكندرية

شكرًا جزيلًا على الإهداء المقدم لي.

شكرًا جزيلًا لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع.

١. الهروب من جنة آدم

رأيتها لأول مرة أمام باب المركز الإسلامي في فلورنس العتيقة؛ ذلك المكان المعطر بعبق المباني القديمة التي تعود إلى عائلة الميديتشي، ومن منا لم يقرأ عن لورينزو المانيفيكو وكوزيمو فهي من أهم العائلات التي حكمت وسطرت تاريخ فلورنس المسماة باللهجة الفيورنتينية فيرنزا وبدا لي وأنا أقرأ تاريخ هذه العائلة في كل مكان أن كل شيء قد هرب من صرعات آدم؛ هذه العائلة في نهاية حكمها كانت كلها نساء، ولم يكن هناك آدم واحد ليستمر في حكم فلورنس، انتهت العائلة بسبب انتهاء إنجاب الذكور، ولكل زمان ومكان آدمه المسيطر، ولكن هل تنتهي آلام حواء فهي من تنجب آدم، وتحتويه طفلًا وشابًا ورجلًا وصديقًا وحبيبًا وأبًا، هل تستحق حواء كل هذا العذاب.

صافحتني بحرارة وكلمات عربية مكسرة الأوصال، فلا تكاد تعرف لحرف الحاء أو العين مكانًا بين خليط من الكلمات الفرنسية والعربية أو الإنجليزية، وربما لغة أخرى، لا أعرفها وقد دق حرف "الراء" المعقوف إلى "الغاء" أذني، فابتسمت حينما أخبرتني باسمها العربي، والذي تحولت فيه "الراء" إلى "غ" فزادت جمالها جمالًا، وزادت أشعة الشمس بياض بشرتها إلى أن أصبحت كوجهة القمر، فحواء كانت فقط ٤٠ عامًا لونها الثلجي، وشعرها الأبيض يشبه شعر

امرأة في التسعينات ليس إلا هدية من هدايا الله كما أخبرتني وهي تمزح: "هل رأيت مسلمة عربية بلون شعري؟ أنا كتير مكسوف أدخل مسجد"، وكان الحق معها ففي الداخل كانت كل النساء أفريقيات يحملن ميراث الأم السمراء؛ تندرج ألوانهن وعطورهن بل أسماءهن وكأنك تتجول بالكاميرا من سحر إلى آخر من بلد إلى آخر كما تندمج الألوان في قوس قزح، جلست وبجانبي حواء أمريكا الشمالية البيضاء بلون الثلج، أنظر إلى معرض الصور أمامي، هذه حواء الهاربة من جنة آدم الصومالي أتت إلى إيطاليا تاركة أربعة أبناء في رعاية أمها، وهذه حواء ذات العشرين عامًا السودانية الفارعة تتهادى ضفائرها الصناعية وراءها منادية أن من يعلق بها لن يتمكن من الخلاص، رائعة هي ابتسامتها، وهناك تجلس الأذبيكستانية بلباس غريب مزركش بنقوش رائعة الجمال تحمل عبق التاريخ كم من حواء حولي إنهن كثيرات جميلات متـنوعات، وبظل خفيف ابتسمت فابتسمن جميعًا، فقلت فورًا: "هيا، لِمَ لا نتبادل الأدوار وتحكي كل واحدة شيئًا عن نفسها عن بلدها؟ فلكل منا قصة" ابتسمن جميع وقد راقت لهن اللعبة، وكانت حواء الثلجية تنظر إليَّ وعيونها الفيروزية تمطر دموعاَ، وسارعن جميعًا حولها لنفتح بابًا ندخل منه إلى الأعماق.

كان لي بيت وزوج وأب وابن هناك في وسط الطبيعة الخلابة، كانت جنتي، وأذكر يومًا اصطحبني أبي من ذراعي إلى الكنيسة الصغيرة في الحي الراقي؛ ليسلمني إلى آدم ذي الشعر الذهبي والعيون بلون السماء، أذكر أني كنت أطير بأجنحة ذهبية وردية؛ كانت الورود في كل مكان والشموع لم تتأثر بالأجواء الباردة، ولا الثلوج التي تغطي صفحات الطريق، فكل شيء كما اعتدنا عليه إلا قلبي فكان

غريبًا لا يتوقف عن العمل بشدة، ولا يمهلني صوته العالي لكي أسمع تصفيق الأهل والأصدقاء، ولا حتى لأسمع كلمة راعي الكنيسة الذي يعقد الزواج لم أشعر إلا بخاتم ماسي يلمع في أصبعي وعيون تبتسم بالدموع من حولي، وكلمات كم أنت جميلة، كم أنتما رائعين أيها الزوجان، وأخذني آدم من يدي مهرولًا إلى سيارته التي لم أعرفها من كم الزهور البيضاء والصفراء، فقد كان يعرف عشقي للزهورالصفراء، وتساقطت على ثوب زفافي الأبيض المائل إلى الصفار، حبات الأرز البيضاء كما اعتاد أهل بلدتي أن ينثروا الأرز الأبيض رمزًا للخير والبركة فوق العروسين.

بكت حواء وبكي معها الجميع، وأدركت الموقف حواء المغربية وكان معها إبريق مزركش يستعمله أهل المغرب عادة في طقوس الشاي، ووزعت الأكواب الصغيرة الملونة، وصمت الجميع على رائحة النعناع تتسلل بين القلوب الحزينة لتهدئ من روعها، وهدأت حواء البيضاء بياض الثلج، وابتسمت قائلة حينما نفكر في الأحلام؛ فكل منا له مدة زمنية بعضنا يحلم ٥ دقائق ويستمتع كما لو كان الحلم ٥ سنوات وبعضنا يحلم سنوات وتمر كالدقائق ولا يظل من الحلم إلا الذكرى التي تهز القلوب والعقول.

أفقت من حلمي بعد ٥ سنوات كان كل شيء يبدو لي على ما يرام، كانت ضحكات طفلي تملأ المكان؛ يركض ويلعب مع الكلب الصغير الأبيض، فقد أهداه أبي لي منذ أن وُلد ابني حتى يكبرا معًا ويلعبا معًا، وقد كانت البهجة في كل مكان، وكان ابني شديد التعلق بكلبه الصغير، وكنت أنا قد أكملت دراستي الجامعية وحصلت على الماجستير في

الكيمياء وأعمل في مركز الأبحاث، وبدا لي أن حلمي بلا نهاية، لكن فجأة لا أعرف كيف ولا لماذا، استيقظت وأكملت كوب الشاي بهدوء، فقد أرسل لي آدم رسالة أن أعود مبكرة؛ لأنه يريد التحدث معي، فسألته هل الطفل بخير؟ فأجابني نعم إنه عند جده فابتسمت واطمأن قلبي.

في الطريق وكعادتي دخلت إلى حانة الحلوى واشتريت الخبز الساخن المحشو بالكريمة اللذيذة، فهو يحبها، وقالب من الشيكولاتة اللذيذة لابني ولم أنس بوبي الصغير، وفي الطريق وكالعادة أهداني جاري وزوجته المسنين بعضًا من الزهور الصفراء من حديقته فهو يعلم حبي للزهور وخاصة الصفراء، وجدت الباب مفتوحًا وحقيبة كبيرة بجانبه، هل يمكن أن يكون أتى عمي؟ عمتي؟ مَن؟ ربما من أهل زوجي، دخلت وكلي فضول فرأيت آدم واقفًا يشرب سيجارة ويبدو عصبيًا جدًا يهرب من نظراتي ولم ينظر إلى الزهور الصفراء، ولم يمازحني كالعادة بأن الحلوى ستجعلني سمينة مثل جارتي التي أهدتني الزهور، قبلته وكأنه لوح من الجليد تسعى فيه الحياة ببطء، ماذا حدث بالله عليك؟ تحدث صمتك يقتلني.

كلمات مسمومة شقت أذني وكأن وجهي الأبيض مغرق في الدماء، وأزهاري الصفراء لهيب أحمر يحرق كل شيء، جملة صغيرة فقط همس بها دون أن ينظر إليَّ:

"لدي حبيبة أخرى لا أستطيع العيش بدونها، لا أستطيع أن أستمر في خداعك، أنت لا تستحقين أن أخدعك، تركت لك كل شيء: البيت، الطفل، كارت البنك، السيارة، كوني سعيدة ستكونين أفضل بدوني".

صرخت ولم تخرج صرخات! استغثت، استعطفته، رجوته أن يوقظني من هذا الكابوس، أنا أحلم أخبرني اصفعني حتى أصحو، ضربت رأسي في الحائط حتى أصحو؛ لم أر شيئًا غير شبح يتسلل من أمامي وحقيبة سوداء تختفي من أمام الباب.

أفقت في سرير المستشفى الأبيض فقد جاء جاري العجوز وزوجته، وحملاني لا أعرف كيف إلى المشفى لأجد أبي بجانبي وبعض الزهور الصفراء، وتحسست رأسي؛ عليها ضمادة بيضاء، يا الله! أيقظني أريد حلمي. لا أريد هذه الحقيقة من أي أبواب العالم دخلت؟ ليست هذه جنتي ولا أحلامي، ولا هذه زهوري لا أريد أن أراها، وطلبت من أبي أن يلقيها في سلة المهملات لا أستطيع رؤيتها.

أكملت كوب الشاي قائلة: والآن، إذا أمكنني إرسال بطاقة إلى آدم فسأرسل إليه زهرة صفراء وبطاقة شكر! نعم أشكرك، أشكرك من كل قلبي آدم الراحل أشكرك؛ لأنك انتزعتني من عالم وهمي لا وجود له! أشكرك لأنك علمتني أن أكون قوية، أشكرك لأنك تركت لي الحيز لأحب نفسي، لأحب حياتي، لأحب ابني، لأحب ما أنا عليه بدونك، فقد كنت كل شيء إلى أن تلاشى كل شيء؛ لم أكن أرى شيئًا وأنت معي ملكي، والآن رأيت كل شيء عرفت كل شيء؛ لو لم تفتح لي أنت أبواب الحياة لعشت دائمًا خائفة خلف بابك، ولعشت زهرة ضعيفة تحتمي بأشواكك، والآن لا أعرف الخوف، فحينما أغلقت بابك في وجهي فتحت لنفسي ألف باب وها أنا الآن أكملت دراستي وحصلت على الدكتوراه في الكيمياء، ها أنا الآن أقرأ وأفكر، واعتنقت دينًا جديدًا، وجدت فيه حريتي، ها أنا الآن أطوف البلاد من شرقها إلى غربها،

الآن وبعد عشر سنوات على رحيلك قضيت منها ثلاث سنوات في الصحراء الأمازيغية التي حولت لوني الثلجي إلى لون القمح المخدر كالنبيذ العتيق، ها أنا أطير في كل مكان؛ أشكرك لأنك لم تدعني في عالم الوهم بل كنت صادقًا حينما أخبرتني أني أفضل بدونك، أما أنت فمسكين! ستظل سجينًا من جسد إلى آخر؛ لأنك تريد الجسد، ومن يبحث في الأنثى عن جسد فلن تكفيه كل النساء، أشكرك، وبينما الجميع في صمت رهيب إذا بصوت المؤذن في المركز الإسلامي يؤذن للصلاة، وانتقلنا جميعًا من باب الأحلام إلى باب الإيمان نسبح بين يدي الله في صلاة طويلة؛ صلاة حواء.

❋ ❋ ❋

٢. تراتيل السلام - الجزء الأول

مقدمة:

ولأن حكاياتي حكايات صماء لا تُقرأ في الكتب، ولا تُكتب بأقلام ولا أوراق؛ لا تشكلها حروف ولا قوافٍ أو أوزان؛ لأن حكاياتي تُقرأ في العيون المبللة بالدموع يلونها الألم؛ لا يهتم بها أحد؛ لأنها حكايات غرباء مهشمة الأجنحة، ولا تتناثر بعيدًا، فهي ببساطة حكايات مهملة ضاعت كلماتها في فضاء الصمت، ففي الغربة لا تسمع ضجيج إلا لدموع لا يكترث لها أحد؛ لذلك قررت أن أكتب، أكتب كما أريد أن أكتب لا كما يريدون هم أن يقرأوا؛ أن أكتب سطورًا من واقع الحياة أكتب عنها ولها، ربما يكون الهروب من جنة آدم هو باب الجنة التي تريدها، ولها أقول: كوني أنت الجنة التي تريدين مع آدم أو بدونه سواء هربت منه أو إليه.

هكذا كانت دموع حواء الباسمة التي لا تفارق ابتسامتها وجهها؛ حاولت أن أعتصر عنها سحب الألم التي تكسو وجهها رغم ابتسامتها لكنها كانت ترفض رغم تعرفنا من قبل، وذهبت مرة تلو أخرى دون أن تجيب على تساؤلاتي الخفيفة ذات إيحاء وفضول بأن تحكي لنا؛ كانت شابة جميلة فارعة القوام نحيفة لها جمال لا يمكن التعرف على منابعه؛

ربما هي من أصول عربية، أو إيطالية، وكنت أعرف أنها مثلي مصرية، كانت لكنتها الايطالية بارعة كلكنة كل أهل فيرنزا والتي حدثتكم عنها سابقًا، فهي من العائلات المختلطة ترتدي ملابس أنيقة شديدة البساطة والألوان الملتفة حول البنفسجي والأخضر التي تثير الاهتمام كلوحة فنية جميلة تكتمل بها معالم فلورنس الساحرة الجمال، عند تعرفي بها في الحديقة حاولت أن أكسب ثقتها أكثر من مرة؛ إلا أنها كانت تدافع عن خصوصيتها بابتسامة هادئة.

وكانت تجلس في الجانب دائمًا بعيدًا عن صخب النساء في المركز الإسلامي كنت أنظر إليها بين الحين والآخر ماذا تفعل؟ أنا أعرف أنها مسيحية وترتدي دائمًا سلسلة والدتها المعلق بها صليب صغير يظهر تحت ملابسها الأنيقة؛ فأراها غارقة في التحدث إلى نفسها أو ربما تقرأ القرآن ولكن بلهجة غير مفهومة، فهي – عندما سألتها – أخبرتني أنها تأتي لتقرأ تراتيل السلام التي علمها لها والدها وهي طفلة، إلى أن قررت هي بنفسها أن تحكي كل شيء.

وكنا معتادين على دخول الأخوات والصديقات المسيحيات معنا إلى المركز الإسلامي، والذي يعد دارًا للثقافة ونشر الحب والسلام، وأبوابه مفتوحة لمن يدخل، وبدأت تمطر كلماتها كغيث يروي القلوب التي تتلهف شغفًا لنزع الحزن من عينيها، فكلما تحدثت كنا نشعر أن الزهور تنبت من حولنا وكأننا في طواف؛ طواف حول أرواحنا فتصبح خفيفة نقية؛ كنا نحلق معها بعيدًا بأجنحتنا المهشمة، بعيدًا عن سجن غربتنا كانت الفتاة تحكي بالإيطالية، وكنت أنقل عنها بالعربية لمن لا يفهم الإيطالية، وقبل أن تبدأ في حكايتها قدمت لنا قالبًا

كبيرًا من الشيكولاتة ووزعته علينا جميعًا وسط الضحكات المبعثرة، بدا كأنها تحتفل بشيء ما.

❊ ❊ ❊

تراتيل السلام - الجزء الثاني

بدأت الحديث بصوتها الهادئ بكلمة كان في عالمي البعيد (وكأنها تشير إلى عالم لم يبق منه شيء) أسرعت إلى غرفتي بدلت ملابسي وارتديت ملابس الرياضة الخفيفة، فقد كان الجو شبه حار على الرغم من تساقط رذاذ خفيف، وكان الهواء شبه مكتوم، عاد بي إلى مصر الحبيبة في أوقات رياح الخماسين وما تسببه من أرق ومشاكل وانعدام الرؤيا عند القيادة، دون أن تشعر أخرجت منديلًا من علبة المناديل المعطرة ومسحت وجهها كما لو كانت الرمال الساخنة الدافئة تلطم وجهها وعينيها؛ مررت بهذه التجربة وأنا طفلة – لم ترحل أبدًا من ذاكرتي –، كنت أبكي وأطلب من والدتي تبديل ثيابي بسبب التراب والرطوبة التي تزعجني، كنت طفلة لا أعرف أن هذه طبيعة البيئة الصحراوية القاسية، وأن هناك أشياء لا تتغير.

كبرت وتغيرت ملامحي تغير كل شيء إلا عنادي، فأنا عنيدة بشهادة الجميع، وأفقت من الماضي على جرس الباب وكان ساعي البريد قد أحضر لي رسالة استلمتها منه وشكرته بوجه حزين، بالقطع لم تكن رسالة خاصة فنحن لم نعد في زمن الرسائل المكتوبة؛ نحن في زمن التكنولوجيا الحديثة نحن في زمن العلم والمعرفة، وإن كان كل منا يسبح في فلكه وسأخبركم لماذا عندما تحين لي الفرصة، الآن فقط

دعوني أنطلق لأطلق لدموعي العنان، فقد حبستها طويلًا حتى صارت ثقلًا سأجري قليلًا في الحديقة المجاورة للمنزل.

نسيت أن أخبركم أصدقائي وقرائي الأعزاء أن الرسالة التي وصلتني لم تكن بطاقة تهنئة أو دعوة إلى عرس أو مبلغ من المال دخل إلى حسابي البنكي – أخذت قطعة من الشيكولاتة والتهمتها سريعًا حتى يتحسن مزاجي – لم أنس أن أعطي رفيقة عمري منذ عامين قطعة حلوى هي أيضًا؛ إنها كلبتي الرشيقة ذات العيون البنية الحزينة لا أعرف لماذا! ربما لأن الحيوان يكون مرآة لصاحبه؛ ربما تري ما في قلبي، ربما لأنها عاشت معي أصعب فترات الألم في حياتي،

ومن منا لم يعرف الألم؟ تزوجت الحزن معي، فرائحة الحزن مثل رائحة العطر لا يمكن حبسهما، فأنا يا سادة امرأة ككل أنثى؛ لكني لست امرأة عادية؛ أنا امرأة تشفق على أنوثتها، تخاف عليها؛ تخبئها وراء ملابس بسيطة، أنا امرأة ترفض أن تنهمر دموعها أمام أحد، أنا بكل بساطة بكل تحدٍ أنا يا سادة امرأة مطلقة!

آه نسيت أن أخبركم أن الرسالة التي وصلتني وجعلتني أعيش في أجواء رياح الخماسين الصحراوية؛ كانت جواب طرد من المنزل بعد أن نفذ كل ما معي من أموال، وأقام صاحب البيت دعوة حتى أترك المنزل لعدم قدرتي على دفع الإيجار؛ بلغة العوام هنا في إيطاليا أنا (ال فيردى) يعني: جيوبي خضراء لا يوجد بها شيء، أنا من الآن أسكن الشارع أنا وكحل كلبتي ذات العيون الحزينة.

أخذت قطعة شوكولاتة أخرى وأنا أصيح: "بون جورنو" إلى جاري وزوجته وابتسامتي العريضة تركض أمامي، وحياني كعادتهما بالابتسامة، وسمعت الجارة تقول:

"كم هي لطيفة ودائمًا سعيدة مبتسمة هذه المصرية".

ضحكت في نفسي كثيرًا، ووضعت السماعات في أذني وانطلقت أجري على صوت فيروز: "عادت ليالي الصيفية" ويركض وراءي سيل من الدموع وكحل.

❊ ❊ ❊

سوق الكانتو - تراتيل السلام - الجزء الثالث

استيقظت مبكرة صباحًا فقد نمت قليلًا بعد أن أنهكني التفكير طوال الليل؛ الركض في الحديقة المجاورة لمنزلي لم يساعدني كثيرًا على النوم، أسرعت أركض من جديد فالركض دواء طالما تداويت به على عدم النوم، نظرت إلى وجهي في المرآة المستديرة ذات الوجهين؛ أحدهما يكبر الصورة ويجعلها مقعرة عسى أن أرى حقيقة نفسي تكبر على وجهي! كنت أفعل دائمًا عندما تقع لي مشكلة وكذلك معه أضحك عندما أشعر أنه يخفي عني شيئًا، وأطالبه أن ينظر في مرآتي لأرى قلبه، وهل يمكن رؤية القلوب؟ كنت أتصنع أني أقرأ قلبه داخل مرآتي!

لم أر شيئًا بل رأيت وجهه ينسحب من أمام المرآة معلنًا أن علي أن أرفع أحمال وحدتي وغربتي وحدي، وأني أبدًا ما قرأت قلبه؛ أنا أتأرجح بين عالمين بين ديانتين بين اسمين، أهو قدري؟ قمت أصلي، أخذ قلبي في الطواف في ركعة طويلة في ملكوت السابحين فأنا مؤمنة.

كان قلبي يرتل من تراتيل السلام كيف يشاء، استمررت أقرأ حتى هدأت روحي، فقمت في تحدٍ وأنا أشغل نفسي عن الطواف في روحه التي تسكنني، فتحدثت بصوت عالٍ:

"علي أن أتخلص من الأثاث وبعض الأشياء الأنتيكة التي ورثتها عن عائلتي".

(وكلمة أنتيكة هنا تعني الأثرية أو القديمة) سمعتها كثيرًا من جدي وأبي وهما يتحدثان عن أشخاص بعقول قديمة، ومن ملامح وجهيهما ظننت أن الكلمة هي عن شيء سيئ.

أما جدي وجدتي الإيطاليين فكانت تعني لهما أشياء أخرى، فكل ما يتعلق بهذه الكلمة يوجد في دولاب الحائط القديم الجميل الذي تحرص عليه جدتي كثيرًا، وتعلمت أن أقترب منه بحرص وحب مثلها، وأذكر أن تنرو الكلب وهو صغير لا يفهم كثيرًا كان يلعب معي ومن سوء الحظ أن جدتي نسيت الدولاب مفتوحًا، فركضت ببراءة الأطفال ووراءي تنرو يلهث بعيون ضاحكة مرحة ولونه الأبيض النقي، فقد كانت جدتي تبالغ في تدليله وتنظيف أقدامه عند دخوله من الحديقة وتعطينا الجدة (لانونا) قطع الحلوى فنضحك معًا إلا ذلك اليوم فقد بكينا كثيرًا! لأنه قفز في الدولاب فسقطت بعض من مقتنيات جدتي، وشق صدري رعبًا ذلك الصوت الهائل الذي نتج من ارتطام السيراميك والرخام بالأرض.

تقريبًا تهشم تمثال لا أعرف ما هو إلا أني عندما كبرت عرفت أنه (لدانتي الأب الروحي للأدب الإيطالي) والذي كان بمثابة نبي عند جدتي، أما وقد هدأت ثورتها بعد أن رأت مدى تاثري أنا وتنرو، فقد نادتني وكذلك الكلب الخائف تحت الطاولة وأخبرتني أن هناك أشياء ثمينة في حياتنا لا يمكن تقديرها بالأموال، وأنه علينا أن نفكر إذا كسرنا تلك الأشياء وأن نتعلم منها فهي لن تعود مثل السابق إذا كُسرت، وهو ما تعلمته أن حبي له لن يعود أبدًا كالسابق ولن أكون تمثالًا مهشمًا، ووضعت جدتي التمثال المهشم في علبة شفافة وأعادته إلى مكانه حتى

أراه كل يوم وأنا ألعب، كانت جدتي تريد أن أتعلم، وقد فهمت الآن الدرس جيدًا فلكل إنسان مبادئ وقيم ومعتقدات سواء كانت صحيحة أم لا، فإن علي أن أحترم ما لدى الآخرين، وأبتعد عن كسر كرامة الإنسان أو الإساءة إليه، وربما كان هذا سببًا لما أنا فيه الآن فأنا اخترت كرامتي، وما زلت أسأل التمثال هل أنا من كسرته أم هو من كسرني؟

الآن دولاب التحف كله ملكي فأنا وريثة العائلة الوحيدة من ٢٥ عامًا، وكأن وحدتي قدر لا مفر منه إلا بالصلاة – تراتيل الحب الذي علمني أبي إياها في صغري –، فكنت أقرأها دون أن أعرف معانيها، فقد علمني إياها حفظًا وأخبرني أن أقرأها كل يوم عندما أحب وفي أي وقت، نظرت إلى التمثال المهشم مثلي نظرة طويلة قبل أن أحمل حقيبتي على ظهري وأضع كحل في سلة دراجتي بتكاسل وأنا أذهب إلى سوق الكانتو حتى أبيع بعضًا من تلك القطع القيمة، وكان سوق الكانتو الجانبي قريبًا ومليئًا بالضجيج والمنتجات والتحف والأنتيكات، وكأني أدخل متحفًا شعبيًا مفتوحًا؛ أخبرني أحدهم أنه سيرسل لي شخصًا لتقييم الأشياء، ونقلها وبمجرد أن عدت إلى منزلي انتابتني حالة من البكاء الشديد، أنا التي لم أعتد أن أبكي، أنا التي أرفض ضعف الأنثى والتاء المربوطة من اسمي؛ لا لن أبيع شيئًا، لن أفرط في شيء مهما حدث، أحسست بالخيانة لذكريات أجدادي؛ فأنا أحتاجهم اليوم أكثر وأكثر، وما أحوجنا أن نحتفظ بكل ما هو جميل من بقايا الأجداد وخاصة إذا كان قادرًا على رفع إنسانيتنا.

رفعت السماعة وألغيت الموعد، وغرقت في البكاء وكحل بجانبي تواسيني، وربما تحاول أن تلفت اهتمامي إلى أني لم أطعمها

شيئًا اليوم، فذهبت سريعًا إلى المطبخ، أعددت كوبًا من الكابتشينو وأعطيتها طعامها، وبدأت أغني معها نفس الأغنية التي كنت أغنيها مع جدها الأكبر تينرو.

غفوت قليلًا في غيبوبة من الذكرى كنت أنهل من السعادة، اضطررت أن أعمل كثيرًا حتى يكمل هو دراسته وفعلًا حصل هو على شهادته الجامعية بعد ٣ سنوات من الزواج لم يزر فيها أهله ولا مرة بسبب الحالة المادية، وعندما قرر أن يذهب لرؤية والده وعائلته رحبت، وكنت أرغب أن أذهب معه لكنه أخبرني أن أنتظر لأن يذهب هو مسبقًا ولارتباطي بالعمل ولأنهي العام الذي تأخرته في الدراسة، وأعددت له الحقيبة واصطحبته إلى المطار، لم أبك بل اكتفيت بأن ألفت نظره إلى أنها أول مرة يتركني بمفردي منذ أربع سنوات قضيناها معًا، فقبلني قبلة طويلة تمنيت ألا تنفذ وقبل تينرو الصغير ورحل؛ رحل إلى الآن فهو لم يعُد.

وصلتني رسالة صغيرة من ابن عمتي أخبرني فيها أن زوجي تزوج من فتاة ثرية؛ لم أصدق ما سمعت؛ ليس كذبًا لن أطيل عليكم سمعته بأذني، فقد أخبرني أن أباه ضغط عليه وأنه لا حول له ولا قوة، وأنها ابنة رجل ثري وستساعدنا كثيرًا بثرائها، وأنه ما زال زوجي برغم أنه لا توجد أوراق بذلك، وأنه سيعود إليَّ بمجرد إتمام الصفقة وربما يحضرها معه؛ أغلقت التليفون بكلمة واحدة:

"أنت طالق".

طبعًا تسخرون مني الآن كيف لامرأة أن تقول هذه الكلمة؟ ألم أخبركم يا سادة أني امرأة غريبة امرأة فوق العادة؟! لملمت جراحي ولم

أبك طويلًا بل كتبت على سجل حياتي أني امرأة مطلقة، وداعًا وداعًا يا كل الرجال، وداعًا يا كل أنوثتي، وداعًا يا حياتي الملونة، ألقيت كل اللوحات التي رسمتها له في المخزن الصغير، ولم أرها حتى الآن.

❊ ❊ ❊

تراتيل السلام - الجزء الرابع

كنت قد أخبرتكم أن لي اسمًا قبل أن أحصل على لقب امرأة مطلقة، أتعرفون؟ عندما ذهبت لزيارة جدتي لأبي في مصر وأنا طفلة كان اسمي (الإيطالية) لم أكن أعرف لِمَ! لكن لم أحب ذلك كثيرًا، وخاصة عندما ألعب مع الأطفال، فكانت تبدو نظراتهم لي غريبة لا أعرف لماذا! لي عيون والدتي بنية اللون وشعر جدتي لأمي كثير التجاعيد المطعم بخيوط ذهبية، وأشبه كثيرًا جدي لأمي مثل كل شعوب البحر المتوسط، كنت صغيرة لكن ما زالت أشياء وأسماء تنعش قلبي كلما تذكرتها مثل النيل، طلبت مني معلمتي الإيطالية أن أرسمه لها، وبكل فخر رسمت فرعي النيل وأيضًا قلت لها أن جدي يقول أني سأعود إلى مصر؛ لأني شربت من ماء النيل؛ ضحك الأطفال كثيرًا عليَّ، وكان بعضهم يناديني كليوباترا أو إيزيس.

لا أذكر غير ذلك وبعض أحاديث أمي عن سيدات العائلة ونظراتهن المحملة بالفضول إلى جانب المكائد، وكان أبي قد أطلق اسم مريم على أمي؛ لأنها كانت تحب التمر، وقد أحضرت معها فسيلة صغيرة لنخلة زرعتها في الحديقة؛ إلا أنها ماتت من شدة البرد الذي لم تعتد عليه.

كانت ذكريات أمي كثيرة، وقد حكت لي منها الكثير عندما تجتمع نساء العائلة لعمل حلوى العيد، أو في مناسبات الزواج كانت أمي تجلس معهن، وكانت تضجر من أسئلتهن الغريبة لها، ومحاولتهن تعليمها اللهجة العامية، والسخرية من نطقها اللغة العربية إلى أن قرر أبي العودة إلى إيطاليا فعدت، ولم أنس أبدًا تلك الأصوات التي تغني، والتي ما زالت داخلي، لم أنس أبدًا أن جدي قد أخبرني أنها تراتيل السلام (الأذان)، وأنها النداء الروحي حيث تذهب الروح إلى عالم آخر؛ لتسبح في أنهار السلام.

يومًا ما كنت جالسة بين التلاميذ في المدرسة الإيطالية ولم ألحظ إلا وأنا أغني: الله أكبر الله أكبر، صمت الجميع، كان الأولاد والبنات في حصة الألوان، والجميع منهمك في العمل والطنين بصوت يشبه النحل الهائج إلى أن غنيت أنا، وساد الصمت قلت لهم بوجه طفلة أنها تراتيل السلام.

وطلبت مني المعلمة أن أشرح لهم، فقلت لها أن أبي وجدي كانا يغتسلان عندما تغنى التراتيل، وكان أصدقاء أمي ماريا من العرب ينادونها مريم، كانت رشيقة هي وجدتي الفيورنتينية الأنيقة، والتي تختلف عن جدتي المصرية كثيرًا، كانت ترتدي دائمًا جونلة قصيرة، وعليها (ماليتا) قميص من الصوف، وفوقه دائمًا (جرامبيولي) مريلة الطبخ؛ تعمل من الصباح حتى المساء تعتني بكل شيء؛ بالبيت، بالحديقة، بالزهور، بكلب جدي المدلل تينرو أي: (عطوف)، وكان جدي يشاركها كل شيء؛ الطبخ، الشواء في الحديقة، وأخيرًا العزف على الجيتار والرقص معًا، وأنا بين كل ذلك سعيدة مدللة لا أشبه

الإيطاليات، وكذلك لا أشبه المصريات، ومن يراني يسقط في حيرة شديدة عن كوني إيطالية أو مهاجرة، شيئًا فشيئًا بدأت تميزني لهجة والدتي الفيورنتينية وهي لهجة أهل فلورنس.

نفس الاختلاف يوجد في بلدي الآخر حيث أهل أبي يتميزون باللهجة التي ينحدر منها الجنوب وهي لهجة أهل الصعيد، أعرف الكثير من الكلمات العربية والعامية، وأتذكر كلمات جدتي المصرية الذي يفجر صوتها داخلي أنهارًا من الحب وكان وجهها دائمًا مليئًا بالنور.

❊ ❊ ❊

كاجال- تراتيل السلام - الجزء الخامس

غفوت قليلًا إلى أن أيقظتني كحل بحنية شديدة، فقد كانت تريد أن تلفت اهتمامي لشيء ما، آه إنها جارتي الحنون، وزوجها على الباب يطرقان بهدوء، فقد أتيا ليطمئنا عليَّ بعد أن سمعا ربما صوت بكائي أمس دون أن أشعر، وشعرت بأحضانهما دافئة مثل أحضان جداتي، وبكيت بين أيديهما، فهم معي منذ زمن أعيش بينهما منذ أن تزوجت وكانا يعرفان جيدًا ما مر بي، وأعادتني كلماتهما إلى مشاعر غريبة لم أشعر بها، ولم أتذكرها منذ ٦ أشهر منذ أن تركني ورحل.

فها هي جارتي التي أضاءت لي المدخل أول يوم دخلت إلى هذا المنزل منذ ٣ سنوات، وكنت أعلق بذراعه كما يعلق الطفل بثوب أمه، وهي نفسها من نثرت الأرز الأبيض على وجهي قائلة عروس جديدة حياة جديدة أمل جديد، وكعادة الإيطاليين ينثرون الحبوب على العروسين حبًا وأملًا في البركة، وكان يقول لي أنهم في بلده مصر ينثرون الملح يوم الزفاف حتى إن بعض الأطفال قد يصرخون إذا دخل الملح إلى أفواههم المفتوحة وأعينهم، ويتحول المشهد إلى بكاء وضجة، ابتسمت وأنا عالقة بين ذراعيه والأرز الأبيض ينتشر من حولي، فيسرع الحمام بألوانه الرائعة ليشارك فرحتنا ويدعو لنا با لسعادة.

تراتيل السلام - الجزء السادس - زواج ياسمين

كان هو الشاب الأسمر الذي اختاره قلبي من بين القلوب، كان يدرس الفن معي، جمعنا حب النيل والشمس التي لونت وجهه هو ابن النيل، أرسل إليَّ عمي الذي لا أعرفه إلا صوتًا فقط: أن شابًا من البلدة قادم إلى إيطاليا، وعليَّ أن أقابله وأهتم به فهو ابن صديقه العزيز، وأنه أتى إلى فلورنس بلد الفن والعشق والجمال لينهل من جمالها من أحلامها من علمها.

ولأني كائن غريب فقد أحببته! نعم أحببته كان خجولًا ينظر دائمًا في الأرض، لا أعرف لماذا فهم معتادون على ذلك، فقد أثار غضبي أنه لا ينظر إليَّ عندما أحدثه، وقد علمتني جدتي أن أنظر باهتمام لمن أتحدث معه؛ لأن ذلك نوعًا من الاحترام والتقدير له، أما هو فلم يبال، اصطحبته معي إلى الجامعة، وساعدته أن يسجل أوراقه، وطلب مني أن يدرس معي فرحبت، كان فنانًا بارعًا يحسن مزج الألوان، ويعشق لون الفيروز مثلي لكنه كان خجولًا جدًا.

كنا نقضي اليوم معًا وخاصة أن حالة والدتي تدهورت كثيرًا بعد وفاة أبي وحزنها الشديد عليه إلى أن رحلت بعده بعدة أشهر، وظللت أنا وحيدة بين أكوام الذكريات التي أنثرها على لوحاتي، لم يبق لي غير كلبة صغيرة وهي كحل رفيقة دربي الآن.

كنت بمفردي اقترحت عليه أن يقيم معي في منزل والدتي، وأن يسدد معي إيجار المنزل فقبل، وكنت سعيدة فكنت أشم فيه رائحة بعيدة تأتيني من هناك؛ رائحة تشبه رائحة السعادة.

انتقل هو للعيش معي حيث أخذت أنا غرفة والدتي وأخذ هو غرفتي، وتقاسمنا كل شيء عانيت كثيرًا من خجله الذي يحرجني، فأشعر بالرغبة في الخروج من البيت، قررت التحدث معه قلت له:

"إن هنا شيء عادي جدًا أن يسكن الطلاب والطالبات معًا في منزل واحد، وأحيانًا في غرفة واحدة، وأن خجله باب يفتح من الفضول في قلبي، فأنا أيضًا عربية وأفهم الصعوبة التي يعانيها في تقبل الأمر".

قسمنا العمل معًا والدراسة، وبدأ يعتاد على الحياة معي، فبعد أن كان يرتدي بيجامته طول الوقت بدأ يخرج من غرفته بالتيشرت والبنطلون القصير، وبعد أن كان يطرق باب غرفتي بدأ يدخل بلا استئذان، وازداد تعلقي به فكنت أشعر أنه من يكمل روحي ويفهمها، كنت أستمع إلى رأيه في أعمالي ورسوماتي، وهو أيضًا، وبدأ يقترب أكثر وأكثر وكانت أرواحنا تندمج معًا في تناغم جميل، كان مرحًا بما يكفي لأن أحبه، نعم أحبه ولن أنتظر حتى يخبرني بل سأخبره أنا.

وسط صمت النساء توقفت ياسمين تلتقط أنفاسها، وكان صوتها هادئًا جدًا، ورغم طول حكايتها لم يشعر النساء بالملل، بل ظللن هادئات في انتظار أن تكمل حكايتها.

كنت أرسم في غرفتي إلى أن دخل هو ليسألني عن بعض الكلمات الإيطالية الصعبة، فهو حتى الآن يتحدث الإيطالية كما أتحدث أنا العربية، وضحكنا، وأخبرته أني أحبه، لم أنبس بكلمة بل

رحلنا معًا في رحلة سعادة طويلة؛ نخطط لكل شيء، أصبحت الحياة نهرًا من الحب، تزوجنا مع أنفسنا أمام الله بلا أوراق، بلا شهود، بلا كنيسة، بلا مسجد، فقط الله يشهد بزواجنا، هنا اتفقنا على الزواج، وبدأت حياتنا بمنتهى البساطة؛ لم يكن لدينا الأثاث الفخم، أو ديون، أو أعباء مالية وغيره من العراقيل التي وضعتها بعض المجتمعات لعرقلة الزواج، وهو ما يتسبب في الكثير من الأمراض الاجتماعية وكنت راضية، أخبرت أبي وأمي عند قبرهما أني تزوجت، أخبرنا أصدقاءنا في الجامعة، أخبرت صاحب المكان الذي أعمل فيه، أخبر هو أهله وأصدقاءه وعمي وعماتي، وبارك لنا الجميع، قررنا أن نترك البيت القديم، ونأخذ بيتًا آخرًا بجوار العمل والجامعة، وانتقلت إلى هناك في ثوب زفاف أبيض حيث قابلنا ساندرا وزوجها لأول مرة، أخبرنا الكون بزواجنا وتعاهدنا على أن نتزوج في المسجد وأمام القانون الإيطالي في أقرب وقت.

انتقلت إلى بيت جاري العجوز وزوجته الحنون، حاولت أن أتصنع وأتماسك أمامهما، وكانا لي صدرًا حنونًا أرسله الله لي؛ ليهبني القوة حتى أستفيق من موتي خارج أبواب الحياة.

أهملت عملي ولم أذهب منذ ٣ أشهر منذ أن أرسل إليَّ ابن عمتي خبر زواجه، قررت مواجهته ولا أدري من أين ولدت داخلي تلك القوة الغامضة التي لا أعرف مصدرها أهو الحب؟

نعم الحب هو مصدر القوة، مصدر الضعف، مصدر التحمل، مصدر الخوف، الحب هو نبع ومنبع كل شيء، ماذا لو استمر حبه؟ وماذا لو قررت ذكراه السكن الدائم في قلبي؟ لن أسمح بذلك! أيها

الكاذب ألم تخبرني أن قلبك منزلي؟ لماذا إذن هجرتني بعيدًا؟ لماذا قررت أن تلقيني وسط المهاجرين أطوف كل يوم في عالمك؟ لماذا ترسل ذكراك لتطوف بين قلبي وشراييني؟ ليكن الطواف هو طواف الوداع.

سمعت صوت كحل تبكي معي، فأشفقت عليها وقررت أن أصطحبها في نزهة إلى الحديقة المجاورة، وطبعًا كم كانت سعيدة بقطع البسكويت اللذيذ الذي أعطتها لنا ساندرا عند الخروج، طبعت قبلة على خدها وأنا أقول لها لا أعرف ماذا كنت سأفعل بدونك؟ كانت ساندرا بيضاء اللون لديها عيون تميل إلى الأزرق الفاتح؛ يليق بهذا الكوكب المضيء بالشيب على رأسها، كانت حقًا تحبني كابنتها، فقد تعرفت عليها منذ قدومي للسكن هنا، وكانت بمثابة أم لي تقبل علينا بالمودة والحب، وبأطباقها اللذيذة، وكان زوجها يعمل في البحرية قبل التقاعد، كانت دائمًا حزينة بعد أن أخبرها ابنهما الوحيد بأنه التحق بالعمل في أمريكا، وأنه ربما لا يعود الآن، وقد تفهمها الوضع هي وزوجها بصمت دون الإفصاح عما يدور برأسهما، وعن الخوف الذي يراود صدرهما، فقد علما جيدًا أن ابنهما لن يعود، ولم يتبادلا الحديث خوفًا على بعضهما من الحزن، فأهداني القدر لهم في هذا التوقيت بالذات عطفًا عليهم ورحمة بشيخوختهما.

وكانت تصلي كثيرًا وأنا أنظر إليها، فقد كانت تصلي للرب، بل صلينا جميعًا أنا وهي، فقد كانت ساندرا من أصول يهودية.

طاف كل ذلك في رأسي وأنا جالسة في الحديقة أراقب كحل وهي تمرح مع الكلاب، كم هم رائعون، ويلعبون يتبادلون القبلات

ويلهون معًا دون أن ينظر أحد منهم إلى الآخر نظرة غريبة بسبب شكله أو لغته أو دينه، فقط يتبادلون الحب، ويهرولون جميعًا إلى البوابة حتى إذا أتى ضيف بكلب جديد ليلعب معهم في مرح، وابتسمتُ تُرى ماذا لو أخبروا بعضهم عنا نحن البشر؟ بم سيتحدثون؟

وأنا شاردة في ابتساماتي حيتني شابة من نفس عمري، كانت في نفس المكان من الحديقة وهو مكان مخصص للعب الحيوانات؛ حيث توجد فيه ألعاب خاصة بهم، وقالت لي:

"ألا تذكريني؟ أنا صوفيا!".

نظرت إليها أتأملها، كيف لم أعرفها وكانت صديقتي في العام الأول من الجامعة، وابتسمت كدت أصرخ صوفيا، الجامعة فيا سان ماركو! ولم أتمالك نفسي أنا وهي من الضحك، وظللنا نضحك حتى تأخر الوقت، وتبادلنا أرقام التليفونات على أمل اللقاء غدًا في الحديقة، وكانت كحل أكثر فرحًا مني بعد أن لعبت كثيرًا مع صوفيا.

* * *

تراتيل السلام - الجزء السابع - طواف الوداع

مرت السنوات منذ لقائي مع صوفيا في الحديقة، ثم في المركز الإسلامي، وكانت صوفيا المفتاح الذي فتح لي أبواب الحياة مرة أخرى، فقد تقابلنا اليوم التالي واستطاعت على مر الأيام أن تخرجني من الطواف حول ذكراه؛ كانت تحادثني كل يوم نخرج معًا ونضحك معًا، وأقنعتني بضرورة أن أكمل دراستي، فكانت خير صديقة أرسلها لي الله، فقد أقنعت صاحب المتجر الذي تعمل فيه حتى قبل أن أعمل معها، فكنا نقسم الوقت بين العمل والدراسة، وكم كانت سعادتي حينما تخرجت مثلها من كلية الحقوق، وانتقلت للعمل في مكتب هام، وهناك التقيت مع صديقي الذي أصبح بعد ذلك أب لطفلتي الجميلة، والتي أسميتها نور على اسم جدتي المصرية.

كنت أعشق بلدي الذي لم أره منذ أن كنت طفلة، وأرغب بشدة أن أتعرف على ديانة أبي وجدي الذي لا أذكر منه غير رائحته والعمامة البيضاء، وكان زوجي الجديد يعلم تلك الرغبة فلم يمانع، اصطحبني إلى المركز الإسلامي يوم الجمعة، وكلما أردت الذهاب إلى هناك، وقويت علاقتي بالمكان، فكنت أذهب بمفردي أو مع صوفيا، وأشتري البخور ونأكل من الحلوى التي تعدها النساء هناك، ونشرب الشاي الأخضر على الطريقة المغربية، وكم استمعنا من

الحكايات عن آدم وحواء حتى إننا كنا نسمي اللقاء هناك الهروب من الجنة، نعم فكلنا هاربات، هاربات بين الماضي والحاضر والمستقبل، كنا نصلي ونبتهل بالكثير من الدعاء (تراتيل السلام) إنها تراتيل الجنة، كان آدم جزءًا من هذه الجنة، كنا نتحدث كثيرًا عنه وعن تجارب الطلاق.

قررت أن أواجه لقب مطلقة الذي تحمله أغلب النساء هنا بصدق وقوة، كم كنت سعيدة معهن، وقد اتفقت مع صوفيا إلى السفر معًا في إحدى الإجازات لزيارة القاهرة، ولم أنس أن أطوف حول خان الخليلي الذي كانت روحه تصحبني بذكريات جميلة أحن إليها، لم أنس أن أسأل ابن عمتي عندما أتى إلى استقبالي أنا وصديقتي عنه؟ فقال لي أنه لا يعرف عنه شيئًا فقد انقطعت أخباره، ويُقال أنه سافر إلى الخليج بعد وفاة والديه، وأن لديه أطفال وأن ابنته تسمى ياسمين كاسمي، لم أحزن ولم أنهر نفسي التي خدعتني كثيرًا، وصورت لي أنه يراني في أحلامه ويقظته، كما أخبرني آخر مرة قبل رحيله، لم أهتم له فلو لم يكن آدم ما كان الحب، ولو لم يكن آدم ما كان الألم ولا السعادة والأمل، ورأيت قلبي يعفو عنه بعد أن كنت أظن أن لن أسامحه أبدًا، ليته يعلم أني عفوت عنه وأن طوافه بين روحي وشراييني قد توقف بعد إسلامي، أصبحت أرى العالم بقلب جديد، وبعد عودتي إلى إيطاليا قررت أن أنثر بعض الزهور في حديقه الحمائم والتي طالما ذهبنا إليها معًا، وكنت أقضي وقتًا طويلًا هناك كلما عصفت بي الذكريات ودفعني الحنين إليه، كنا نذهب إلى هناك دائمًا فهو مكان تلتقي فيه أرواحنا بجانب الجسر القديم (بونت فيكيو)، وجدتني أكتب على العشب وداعًا وأنا أطوف طواف الوداع

في المكان خيل إلي أن روحه التي تسكن الحديقة قد رحلت، وتمثل لي وجه زوجي مكانه.

تمت

٣. الشيميتيرو «المقبرة» ثوب حياة

رأيتها أمام غرفة النساء وهي تجر جلبابها الطويل الأسود المزركش بنقوش تشبه تلك التي ترتديها نساء المغرب العربي، وعلى وجهها ابتسامة عريضة حتى إن عينيها اختفتا تمامًا تحت جفون تحتضن بعضهما في عناق طويل قبل أن تفتح لتبتسم من جديد.

دخلت إلى المركز الإسلامي ومعها الكثير من البالونات الملونة ونادت على الأطفال الموجودين، وأخذت توزع عليهم قطع الحلوى الملونة فسار الهرج والفرحة بين الأطفال، وأخذوا يركضون هنا وهناك، ودخلت إلينا في صالة النساء أعطتنا مما تحمل من حلوى، وجلست باسمة بعيونها المغلقة والتي تعانق جفونها في عناق طويل فقط تنثر ابتسامتها هنا وهناك.

قضينا الوقت في ثرثرات نسائية لطيفة؛ إلا أنها لم تتحدث قط، حان وقت الانصراف ورحل الجميع، وأخذت سيارتي من جراج سوق "سانتا امبروجو" العتيق الموجود قريبًا من المسجد، وبينما أنا في الطريق لمحت تلك المرأة الطيف الباسم، تسير في جانب الطريق بلباسها العربي المميز، والذي يصعب رؤيته في أوروبا إلا من جانب بعض النساء المغربيات؛ لذلك دفعني فضول شديد أن أتوقف بجانب الطريق وأدعوها؛ لأن أحملها إلى منزلها فقد بدأ رذاذ المطر يتساقط،

ومن يعش في مناخ أوروبي يعرف أن الطقس حاد متقلب المزاج كمزاج امرأة تشرينية يتقلب كل دقيقة، لم يكن الوقت قد تأخر بعدُ، فقد كانت الساعة تدق السادسة، اقتربت منها وأنا أدعوها لتركب معي السيارة، وسألتها أن أحملها في طريقي.

كشفت السيدة الكاب الأسود الذي يغطي رأسها ونصف وجهها، وقد كانت المفاجأة التي خلعت قلبي من مكانه، رأيت امرأة أخرى غير الباسمة الثلاثينية التي كانت تضحك منذ قليل، هي من كانت جفونها تتعانق من الابتسام فإذا بعيون خضراء تمطر سحبًا من الحزن والبكاء، وكأن بركانًا يتفجر أمامي دموعًا بلون أحمر تتفجر من ينبوع أخضر على خدين نحيفين، راعني ما رأيت هذا البركان الذي يتفجر أمامي أهي تلك السيدة التي كانت منذ قليل؟ لقد بدت لي في المسجد صلبة قوية، أما الآن فقد ذاب وتهالك فيها كل شيء، وكأني بجبل منهار يسقط حممًا من دموع ساخنة.

أشفقت عليها بل أقسمت عليها أن تصعد إلى السيارة رغم أن صوتها أتاني غريبًا، وكأن الهواء يرفض أن يخرج من صدرها، وبعد مجهود دخلت معي السيارة، فقد كانت منهكة بما يكفي ولم تقاوم كثيرًا، تقبلت مني بعض الماء وأنا أسألها:

"إلى أين؟" دون طائل فلم تجب؛ كانت جسدًا متهالكًا ينتفض بلا روح على مقعد السيارة، وتساقطت دموعها ثقيلة، فتسبب لي إزعاجًا كالذي طالما سببه لي صنبور الماء التالف إذا فشلت في إغلاقه، وساد الصمت، حاولت أن أنبس بكلمة فلم أستطع، أدرت شريط قرآن للشيخ محمد رفعت ذلك الصوت الملائكي الذي انطلق يغرد: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾.

أخذت أدور بالسيارة في شوارع "فلورنس" العتيقة الساحرة بطعم الحزن، أدور هنا وهناك وكأني أراها لأول مرة، كانت فلورنس حالمة حزينة جدًا، وكانت المحلات مغلقة والشوارع شبه فارغة، وتذكرت أن اليوم هو الأحد، وأنه إجازة، وأنني يمكنني أن أدخل كل شوارع السنتر دون أن أتعرض لغرامة مالية، فقررت أن أذهب هناك ربما أخفف عن هذه السيدة المسكينة التي بدأت تفيق على صوت كمان صغير يعزفه صبي صغير ضئيل الحجم على جانب إشارة المرور، وقد رأيت الحياة تعود إليها بسماع ألحانه، وكأنها تعود شيئًا فشيئًا إلى الحياة، تجرأت وجمعت شجاعتي وبدأت أهمس بأغنية معروفة كنت قد وصلت إلى الجسر القديم "البونت فيكيو" الذي يقطع نهر "الأرنو" شامخًا تملؤه الهيبة والوقار، وكأنه حارس من زمن الآلهة – كما يقولون – يحرس النهر، والذي يصيب الجميع بالدهشة والذهول أمامه حتى إنه يقال: إن هتلر لم يجرؤ على دكه بالمدافع وكان قد هدم كل فلورنس إلا هذا الجسر.

بدأت أغني:

"خذني إلى الجسر القديم..

دعني أغني وأرقص على جنباته..

يومًا ما ساقابلك هنا..

سأمطرك بالقبلات..

وسارتدي معطفك لأحتمي من بكاء السماء وعزف الرذاذ على وجه النهر".

ارتفع صوتي بالغناء إلى أن بدأ صوتها يخرج شيئًا فشيئًا، وكان سربًا من الحمائم يتحرك ببطء إلى أن ارتفع فجأة إلى عنان السماء؛

كانت السيدة المجهولة ذات الجلباب العربي تغني معي، وارتفعت ابتسامتها شيئًا فشيئًا إلى أن تعانق جفناها من جديد ها هي تبتسم.

كانت تغني بلهجة ايطالية شبه عربية؛ إذن هي ليست من القادمين الجدد، بل قضت من الزمن هنا ما مكنها من اللغة واضح جدًا من لكنتها، ورأيت عيونها الخضراء المنهكة ووجهها الشاحب وضحكت، فابتسم قلبي الشارد، وسألتها:

"هل أكلت شيئًا؟ أرجوك إن معدتي تصرخ هل نأكل شيئًا معًا؟".

فأومأت برأسها "سي" أي: نعم، فورًا أوقفت السيارة على جانب النهر وانطلقنا إلى محل الشاورما الباكستاني؛ كانت رائحة الخبز العربي تتسلل بين هواء النهر البارد مختلطة برائحة التندوري تتسلل عبر ضيوف النهر من السياح الذي أتوا من كل العالم، وجمعهم شيئان سحر نهر الأرنو ورائحة التندوري التي تسللت كساحرة غجرية تصفهم في طوابير أمام المحل المعطر برائحة الزعتر المختلط بالكاري والتوابل الهندية والباكستانية إلى جانب رائحة الدجاج المشوي على الفحم، والذي يتم شواؤه من قبل الزبائن أنفسهم في أفران صغيرة على الطاولة، سألتها ماذا تحب أن تأكل فأجابت على الفور "تندوري" ولم أشك أبدًا في ذلك.

لم نتحدث كثيرًا بل انهمكنا في شواء ما قُدم إلينا، فقد كنت أحافظ على كلماتي كي لا يصدر مني شيء يزعجها أو يغضبها فتهرب؛ لذلك أكلنا بلا حوار غير الابتسام، فالابتسام هو أرقى اللغات وأعظم الرسائل الإنسانية، وهدأ الجوع الغريب الذي انتابني فجأة بدون مقدمات.

تناولت كوب الشاي الباكستانية المزركشة من أمامها، وكنت أنا أحتسي القهوة الرائعة وهي تقول: لقد أعدتيني إلى الحياة أنا الآن مدينة لك بحياتي، فقد أتيت إلى المسجد اليوم لأصلي وأحتفل كانت هذه الحلوى والبالونات هي حفل موتي ونهاية حياتي؛ لقد كنت ذاهبة إلى الموت! صدقيني قوة غريبة كانت تسحبني إلى الموت؛ لا أعرف أين، أو إلى أين، ولا كيف، لكني كنت على يقين أني أموت وأن حياتي ستنتهي اليوم؛ لذلك كنت أضحك سعيدة وأنا أتجرع تراتيل الموت؛ لكن أيقظني صوت الشيخ وهو يقرأ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

أنهيت القهوة وودعنا الشاب الباكستاني، وانطلقنا وكلي لهفة أن أستمع إلى سر هذه السيدة الغامضة.

تناثرت خصلات شعرها الأسود الطويل على كتفيها النحيفتين جدًا، وبدت لي ابتسامتها رائعة وهي تستمع إلى غناء فناني الشارع الذين يملؤون المكان ويعزفون العشق على نهر فلورنس العتيق، مدت يدها لتصافحني قائلة:

"أنا "مامي" شكرًا لك على كل شيء".

طبعًا مامي لم يكن اسمها الحقيقي بل مامي هو اسم أي أم، وسألتني:

"هل لديك وقت؟".

فأجبت بسرعة:

"نعم "ترانكويللا" اطمئني أنا في إجازة عمل طويلة، ولدي كل الوقت فأنا أبحث عن عمل بعد أن فقدت عملي؛ لأني امرأة".

فأجابت:

"إذن هيا بنا لنذهب إليه؛ إلى قلبي".

ركبنا السيارة بينما توجهني هي إلى حيث تريد قائلة:

"سأريك أين قلبي، وستقرأين كتابي".

انطلقنا على طريق أعرف أنه يحمل سالكيه إلى خارج المدينة؛ لم أبال فقد كانت رغبتي عميقة في اكتشاف أمر هذه السيدة، ساد الصمت بينما هي توجهني بيدها، يا الله! تملكني شيء من الخوف فقد عرفت الطريق؛ إنه الطريق إلى المقابر "الشيميتيرو"، فتمالكت نفسي وبدأت الثرثرة عسى أن تتحدث وتفصح عما تنوي؛ قلت لها:

"هل تعرفين أن كلمة مقبرة كلمة عربية، وأن نابليون بونابرت هو من أحضرها إلى أوروبا في عصر الاستعمار؟".

لكن لم تجب فقد بدا لي أنها لا تعرف شيئًا عن التاريخ أو العلم، بل لم تنطق إلا بكلمة واحدة:

"أنا لا أعرف القراءة أو الكتابة".

سقطت الكلمات على رأسي فصمت، وكنت معتادة على ذلك؛ فأغلب نساء العرب أميات، عاد الصمت من جديد ولا أخفيكم أن كل الأفلام الصفراء التي صُنفت بالرعب بدأت تتراقص أمامي، وخاصة أن الشمس اختبأت وراء سحب سوداء قاتمة كأنه ينتابها هي الأخرى الخوف فقررت الرحيل! يا الله! ماذا فعلت بنفسي؟ استيقظت السيدة المتهالكة على الكرسي بجواري مما أبعد عني فكرة احتلت عقلي وهي العودة من حيث أتيت، لكن الطريق كان اتجاهًا واحدًا، ولا يمكنني التوقف أو الاستدارة؛ هو الطريق إلى المقابر إلى النهاية التي لا فرار منها إلا أمام لوحة المقبرة التي دخلنا إليها في ممر طويل، وتركنا

السيارة في الجانب المخصص، وفتح لنا الحارس الغريب الشكل الباب دون أن ينبس بكلمة وأغلق الباب وراءنا كأنه يطمئن أن لن يهرب أحد من سكان هذا المكان أو كأنه لا يرانا وكدت أصرخ: أيها الأبله لا تغلق الباب؛ فالموتى لا يهربون إلا أنه أغلق بإصرار كما لو كان هناك من حاول الهروب.

شعرت هي بمدى الخوف الذي ينتابني فوضعت يدها على كتفي وكأنها تطمئنني قائلة:

"لا تخافي، لقد أنقذتيني من الموت، بل وفتحت لي باب الهروب من هنا، هذا يا سيدتي بيتي أنا أسكن هنا؛ أنا سيدة القبور لا تخافي!".

عبثًا حاولت، كيف لي ألا أخاف؟ أردت أن أفيق من هذا الحلم بل الكابوس المخيف ولم أستطع؛ كان الموقف صعبًا جدًا لا يمكن وصفه، سرت بأقدام لا تتحرك عبثًا أجرها جرًا، فكانت عنيدة أرى حولي حفر وعليها الصلبان الكبيرة، ولم تكن المرة الأولى التي أحضر فيها إلى الشيمتيرو، لكن لم أواجه رعبًا مثل هذه اللحظات، وكنت أتحسس أقدامي خوفًا من أدوس فوق القبور، فأنا مشتتة ذهنيًا إلى أقصى حد، وكانت تسحبني من يدي ولا أعرف إن كنت أسير أم أطير، وقد غاب ضوء الشمس ولا توجد إضاءة كافية لأرى ما حولي، لم أعد أقوى حتى على الهروب، وفجأة أفقت من أفكاري القاتمة على جسد ملقى على قبر أمامي، كانت هي وقد انفجرت في بكاء خلع له قلبي وهرب مختبئًا بعيدًا، شل جسدي وأنا أسمع صوت بكائها يهز الأشجار فتزأر وتتطاير أوراق الأشجار الميتة فتراها عيني كخفافيش الظلام،

وهربت كل الطيور من على الأشجار في مشهد مهيب كادت العاصفة تقتلع عقلي من مكانه، تجمدت في لحظات خارج الحياة إلى أن هدأت المرأة وعادت إلى رشدها ربما تذكرت أني معها، والتفتت إليَّ قائلة:

"سامحيني لم أرغب في أن أخيفك، اطمئني أنت بخير، تعالي لنقرأ الفاتحة معًا على روحي التي تسكن هنا في هذا القبر".

رفعت رأسي بيدين مرتعدتين أقرأ ما كان على اللوحة الرخامية الموجودة على القبر اسم وعمر شاب عربي ١٧ عامًا، وبدا لي أنه توفي منذ ٣ سنوات.

يا الله! إنه ابنها لذلك كانت تصر أنها تسمى مامي، وبدأت تتكلم بصوت هامس كأنه آلة رعب تعزف مقطوعة ألم في ليلة حالكة الظلام، قالت لي:

اسمي الحقيقي حياة، في ربيع تضيئه شمس الجزائر الرائعة اللطيفة، فلا هي باردة ولا هي ملتهبة، كانت الطيور تغني على الأشجار وأنا أركض في حديقة منزل أسرتي طفلة عمرها ١٥ عامًا، دخلت أمي ومعها بعض النسوة، وهن يتهامسن وأخبرنني أني ساتزوج، وفكرت أخيرًا أتى اليوم الذي أخبرنني عنه كثيرًا، وأني أعيش من أجله، ونظرت إلى عيونهن كن جميعًا مبتسمات وحركت رياح الصيف العالية شعري فنثرته هنا وهناك وقد فككن ضفائري، وبدأت المرأة العجوز صاحبة الوشم على ذقنها والتي كثيرًا ما رأيتها تضع الحنة على أيادي الأطفال معلنة بدء طقوس الزواج والآن قد أتى دوري.

تم زفافي؛ كان آدم شابًا وسيمًا يكبرني بعامين تقريبًا، وقد وضعت النساء التاج الذهبي الذي تحلم به كل البنات على رأسي،

وألبسنني الملابس المشغولة بالذهب، لم أر شيئًا غير ذلك، لم أعرف وجه آدم بل كنت شديدة الحياء ولم أنظر إليه، كنت أرى الجميع يضحكون بضحكات ماكرة مريرة لا أفهم لماذا! كانت وجوههم الضاحكة تنعكس في مرآتي وجوه قلقة عابثة، ورأيتهم جميعًا بنفس الثوب الأسود الذي أرتديه رغم أنه كان بكل الألوان، سمعت أنه بعد ساعات قليلة ستحملني طائرة كبيرة إلى مكان بعيد يقال عنه أنه أوروبا، وأني سأسكن في مدينة جميلة ولم يشغلني شيء أكثر من همسات الحسد التي تتسلل إلى أذني وعيني بين بنات الحي وصديقاتي، والجيران الذين بدوا لي قطع متكررة لنفس الوجوه.

مرت الأوقات ثقيلة بطيئة فهو يعمل طول اليوم، أما أنا فلم يتغير شيء بالنسبة لي غير لون الجدران بل إن القيود قد تضاعفت فكنت أعمل في المنزل ولا أخرج إلا يوم الاجازة، أما القوانين الصارمة التي طبقها أبي يطبقها هو بحذافيرها، لم أر تغيرًا بين وجهه ووجه أبي غير الجلباب، فأبي كان يرتديه دائمًا أما هو فكان يرتدي ملابس معاصرة ككل الناس حوله، بل أخبرني أنه حصل على شهادة علمية لم أفهم ما هي لسبب بسيط وهو أني لم أتعلم، ولم يُسمح لي كالكثيرات من نساء البلدة بالذهاب إلى المدرسة.

رزقني الله بطفل جميل كشعاع من نور أنار حياتي، وملأها حبًا فعدت ألعب وأعيش طفولتي المغتصبة معه، نلهو نلعب علمني الرسم والغناء وأن أتحدث مثله باللغة الإيطالية، كنا نقضي اليوم كاملًا معًا بعد عودته من المدرسة، والآن انطفأ النور الذي أبقاني على قيد الحياة، فقد سرقته مني سيارة مسرعة يقودها رجل سكير، وهو الآن يرقد هنا إثر هذا الحادث الأليم.

كان هو المخدر الذي يبقيني على الحياة مع هذا الرجل القاسي والذي لا أعرف لوجهه ملامح، فكنت أعيش لطفلي، رغم آلامي رغم ما أعاني من إهانات ولم أهتم لشيء إلا له، لم يهتم هو لموت ابنه بل صار يضربني بقسوة بعد أن كان يمنعه الخجل أن يفعل أمام ابني ويغلق الباب بالمفتاح قبل أن يذهب إلى عمله خوفًا من أن أخرج، كنت أرى خيانته بعيني وهو عائد سكير مع إحدى صديقاته، ازداد الحال سوءًا فقد بدا لي أنه يريد التخلص مني، في يوم أقنعني أن أذهب إلى الشيمتيرو وأقضي اليوم هناك، وعندما عدت وجدت كيسًا أسودًا بداخله بعض ملابسي وورقة بها بعض النقود، ومن الداخل سمعته بعد أن طرقت الباب يقول لي بلهجته الغليظة: "أنت طالق" كررها ثلاث مرات من وراء الباب مكررًا أنه لا يريد أن يرى وجهي أبدًا.

ولم أكن أعرف أن أعمل أي شيء، فهم لم يتركوني أتعلم الطيران بل كسروا أجنحتي وألقوني في الفضاء لأطير؛ كيف؟

وسكنت امرأة أخرى بيتي، لم تكن أكثر جمالاً أو طاعة أو حياء كما علمونا، لم تكن أكثر طهرًا كما طلبوا منا، فقط كانت أكثر تحررًا، تعرف كيف تحلق في سماء المدينة الصاخبة! ها هي تنام على سريري تستعمل عطري ومناديلي وأطباقي وفناجين قهوتي، تستعمل الكمان الصغير الذي كان ينثر الحب والسعادة وهو يهتز بين ذراعي ابني، وحتى هذه الذكرى الوحيدة رفض أن يعطيها لي، بدأت تبكي بدموع متحجرة فقد أبت دموعها أن تسقط هذه المرة، وبدا لي أن روحها تتسلل منها إلى الفضاء الرحب، أكملت قائلة أتيت إلى هنا إلى المكان الوحيد الذي أعرفه وقد رق الحارس لحالي فتركني، وكان يترك باب

الغرفة الجانبية مفتوحًا لأنام هناك بينما أقضي اليوم جالسة مع طفلي هنا، أنا هنا منذ ثلاث سنوات كان البعض من الزوار يخافون بمجرد رؤيتي فيلقون الزهور التي أحضروها من أيديهم، وأتلقفها سعيدة أضحك لأفرشها على وجه طفلي أنا أسكن هنا؛ هنا بيتي.

وبينما أنا أبكي وأنتحب وتذوب روحي على كلماتها الهامسة رفعت رأسي وأنا في رعب شديد، فقد تغير لون ثياب السيدة إلى الأبيض، وبدت لي تشبه الملاك الذي يحلق في محاريب ودروب الوهم، وطلبت مني أن أحمل الثوب الأسود معي، وأن أجعل منه راية عالية في وجه كل من ظلم أنثى؛ إذن هي أحضرتني إلى هنا من أجل ذلك، نظرت إلى عيونها الخضراء بلون أشجار الزيتون فنثرتني بنظرات باسمة تتساقط منها تالات الزهور وموجات الحب على القبور، واختبأ صوتي الذي لم يجرؤ على الخروج، وتعالى صوت أسراب من الحمائم ترتفع وترتفع تحلق في السماء ومعها السيدة ذات الثياب البيضاء، سقطت على الأرض إلى أن عاد إليَّ رشدي، لم أعرف كم من الزمان مضى هل أنا أحلم؟ هل أنا خائفة، وكأني أركض بين الطرقات في غابة سوداء لا أعرف أين أنا، هل ما حدث حقيقة؟ هل رحلت فعلًا السيدة؟ انتبهت على شيء غريب إنها لوحة رخامية أخرى موجودة على يمين اللوحة الأولى، وبصعوبة قرأت ما نقش عليها باللغة العربية إنه اسم مامي حياة توفيت منذ عامين بعد أن سقطت تحت سيارة مسرعة، وكان التاريخ نفس السابق لكن بعد عام.

فررت هاربة بصعوبة، بدأت روحي تصلي وتقرأ القرآن أتحسس الطريق إلى سيارتي، تعثرت في الحارس الذي قابلني وبدا

لي شخص بلا وجه، وكأنه يتعجب من أين أتيت، ربما لم يعرفني في هذا الرداء الأسود الذي لا أعرف كيف أرتديه، أغلق الباب خلفي وأنا أركض إلى أن ألقيت نفسي في سيارتي وكأني هاربة من الموت، نظرت إلى الساعة في السيارة والتاريخ حتى أتأكد أني في الزمان فإذا بي أقرأ نفس التاريخ الذي ماتت فيه حياة وابنها، إذن فقد خرجت تبكي ابنها في طرقات المدينة وتذكرت روحها التي عادت إليها حين رأت الطفل يعزف الكمان على إشارة المرور، خلعت عني الثوب الأسود، وقررت أن أخلع السواد عن كل أم عن كل حياة وقد وضعت الثوب الأسود أمام عيني لأتذكر رسالة حياة.

❋ ❋ ❋

٤. الهاربة

أشاهد نشرة الأخبار اليومية بينما أتناول غذائي سريعًا، أصابني ذهول شديد وأنا أستمع إلى المذيعة التي تتحدث عن البحث عن فتاة هاربة، ولم أصدق ما أسمع بينما تتنقل الكاميرا في أنحاء المنزل؛ أم منهارة وأب لا يقوى على الوقوف يضع رأسه بين كفيه بوجه من عالم الموتي.

رجال البوليس على أبواب الغرف، عربة كبيرة للجيش تغلق الشارع ورجال الصحافة في كل مكان يتلصصون الأخبار، لم أتمالك نفسي حتى وأنا أقود سيارتي بسرعة إلى هناك، وقد شرد عقلي بعيدًا إلى ذلك اليوم، وكنت أقف مع ياسمين وبعض الصديقات نتحدث في الحديقة الصغيرة بجوار المركز الإسلامي، كانت هناك سيدة تقف بعيدًا، أشارت إليَّ؛ إنها تريد أن تحادثني، ذهبت إليها بعد أن اعتذرت ممن كنت معهم.

سلمت عليها وقلت: "لم أرك من قبل".

أجابت: "نعم، فهي أول مرة أحضر إلى فلورنس، أنا من بلدة صغيرة خارج المدينة، وقد أتيت لك في مهمة إنسانية".

كنا نتحدث الإيطالية فالسيدة من نساء المغرب، وكانت تفهم القليل من لهجتي المصرية، جلسنا في ركن الحديقة في مكان هادئ، وبدأت الحديث:

"لقد سمعت عنك من ابنتي، قد أخبرتني أنها رأتك في الجامعة وأنك صديقة لها، وهي تحبك كثيرًا وإلا ما تحدثت عنك".

"تفضلي من هي ابنتك؟ أعرف الكثير من هؤلاء الشباب المغتربين الذين قدموا منذ وقت قليل وأيضًا المولودون هنا، أعاملهم وأحبهم كإخوتي الصغار، في الحقيقة هم يحتاجون إلى الكثير من الرعاية والدعم النفسي لمواجهة الحياة الجديدة، والتطرف الذي مد أياديه في كل مكان من العالم ليغرس سمومه في العقول، وكثيرًا من المآسي تحدث بسبب إهمال هؤلاء وعدم الاستماع لهم في الوقت المناسب، لديهم الكثير من مشاكل الاندماج، وهم أكثر حساسية لمشاكل المجتمع، البعض منهم بمثابة بركان من ألم الوحدة والإهمال، هؤلاء الشباب كأشجار بلا جذور، سأبذل جهدي إن استطعت، ما اسم ابنتك؟".

ما أن نطقت اسم ابنتها حتى انقبض صدري كثيرًا، فهي من أكثر الفتيات حولي مشاكل وتساؤلات وصمتًا، وإن كانت لا تبدو كذلك بسبب جمالها الأخاذ، هي في العشرين من العمر، طويلة نحيفة جدًا حتى إن شرايينها تظهر تحت جلدها قمحي اللون بلون الخمر، عيون عربية سوداء ضاحكة وشعر أسود مجعد تبدو كمانيكان جميلة، كانت الفتاة تحمل العديد من التساؤلات تبحث دائمًا عن إجابات.

ضحكت وأنا أقول لها: "أهنئك، ابنتك جميلة جدًا حتى إني عندما أمشي معها في الطريق أراها تخطف أنظار كل من نمر عليه من الإيطاليين والعرب".

أفقت على راديو السيارة وخبر جديد بعنوان أكثر إثارة، وأتى الصوت يخبر أن السلطات الفرنسية تشدد الرقابة والكونترول على

المنافذ والمخارج مع الحدود وعلى السكان في هذه الأماكن توخي الحذر، وازداد ضيق صدري رغم أني لا أثق كثيرًا فيما يبثه الإعلام، فالكل يكتب بكلماته ما يريد إلا أن ذاكرتي استمرت بتأنيبي، والعبث بما لدي من قوة أحسست بيدي ترتعدان، واستمر شريط الذكريات يمر برأسي وكأنه الأمس، وكانت السيدة تبتسم بمرارة وهي تكمل حديثها.

ولدت ابنتي في المغرب، وقد أحضرتها إلى هنا في عمر ٩ أعوام بعد أن تعبت كثيرًا وهى بعيدة عني، كانت هي وأخوها في بيت جدهم أبو زوجي إلى أن أحضرناهما إلى هنا.

لم تواجه مشاكل أبدًا في الاندماج الدراسي أو اللغوي، كانت مقبولة من الأصدقاء وساعدها على ذلك جمالها الملحوظ واللغة الفرنسية، ما أن أطفأت شمعة عيد ميلادها الرابع عشر ونحن نعاني كثيرًا، فقد تسببت في العديد من المشاكل وتغير فيها كل شيء؛ الفكر، المعتقدات، الملابس، أصبحت تنظر إلينا بعين الاستهزاء وكأنها تصرخ فينا، لا تريدنا، تهرب من كل شيء، حاولنا الحديث معها، وعلى الرغم من أننا نتفهم الوضع، ونتفهم البيئة المختلفة إلا أنها كانت ترفض بكل قوة النصح؛ بل إنها أخبرتني أنها تعرف القانون الإيطالي جيدًا، وأنها يمكنها الاتصال بالشرطة إذا تعرض لها أحد أقاربها بسوء – وتلك حقيقة – فالعديد من العائلات تعرضت للمساءلة القانونية بعد مشاجرات عائلية عادية؛ مثل التي تحدث كل يوم في منازلنا، تحولت حياتي وزوجي إلى ما يشبه زلزالًا بعد أن هربت من المنزل في عمر الخمسة عشر عامًا بعد أن لاحظت رغبتنا في إعادتها إلى المغرب، وكنت قد أعدتُ ابني إلى جَدة حتى نتفرغ لهذه المأساة،

ولم تكن مأساتي أنا فقط بل هناك الكثيرون من المهاجرين يعانون نفس المعاناة.

طلبنا من الله كثيرًا أن يعيد إلينا ابنتنا، وقد أخبرنا الجميع بما قد يحدث لابنتنا، لكن لا شيء، لم يساعدنا أحد فالكل يسعى في فلكه الخاص، أنبنا البعض بكلمات لاذعة؛ إنه كان يجب التعامل معها بالقوة والبعض اعتبر أننا سيئين، وأكيد ارتكبنا من الذنوب ما نستحق به عقاب الله لنا، بينما رأى آخرون ضرورة إعادتها بالقوة إلى بيت الجد، والبعض رأى أن نتركها وشأنها فهي مرحلة انتقالية، فالبيئة لها تأثير كبير.

أما الشيخ في المسجد بعد أن عنفنا كثيرًا، فقد أخبرنا أنه ابتلاء، وأن علينا الصبر، وأن الله لن يضيعنا، فهي الضريبة التي يدفعها الغرباء شاءوا أم أبوا، ترك أبوها العمل بعد أن ساءت حالته النفسية، وأصبحنا بغير عائل مادي، أراد الله لنا أن نعرف مكانها، وذهبنا إليها ونحن نكاد نسقط من الفرح والحزن والألم، ورأيناها احتضنتها بكل قوتي وكذلك أبيها، عادت معنا إلى المنزل بعد أن تعاهدنا أن نترك لها قدرًا من الحرية.

استوقفتني إشارة المرور، وكان علي أن أستعيد قوتي فأنا على وشك الوصول لكني لم استطع فعدت أتذكر كلمات الأم وكيف أن الأمور لم تسر على ما يرام، فقد عادت البنت إلى الخروج والسهر خارج البيت، وعاد أبوها إلى الغضب، ومنعها من الخروج إلى أن أنهت دراستها الثانوية، وقررت أن تلتحق بالجامعة وحالتنا المادية ما زالت سيئة جدًا.

قررنا أن تأتي إلى هنا بعيدًا عنا لتدرس في الجامعة، وقد بعت كل ما أملك حتى أوفر لها مصاريف الجامعة والسكن، وهي معكم منذ عامين تعيش كما تريد.

كنت أستمع إليها دون أن أنبس بكلمة فأنا أعرف الفتاة وأعرف أنها غريبة الأطوار، وأنها في صراع نفسي دائم مثل الكثيرين من حولها، وأحاول أن أستمع لهم، الاستماع ربما يكون الحل الأمثل في بعض الحالات لكن هذا لا يكفي.

عادت السيدة تحكي وهي الآن تريد الهجرة بعيدًا جدًا، أرجوك أن تقنعيها أن تظل هنا بجوارنا، فلا طاقة لي وأبيها بذلك، فعمرها الآن ٢٠ عام فقط، ونحن لا نملك شيئًا؛ فقد فقدنا كل شيء ولا أريد أن أفقد ابنتي، وابني أيضًا بعيد يعاني هو الآخر، لقد فقدنا كل شيء لا أريد أن أفقد ابنتي وأخذت في البكاء.

وعدتها أن أتحدث إلى الفتاة رغم أني أعرف كم هي عنيدة، وكان الأمل داخلي ضعيفًا جدًا. وأعرف بعضًا من الأسباب، ولا أعرف الكثير من الدوافع التي تدفع الشباب للهرب! حاولت معها كثيرًا لكنها رفضت بكل عناد وقسوة؛ هي ترى أن عائلتها شيء وهي شيء آخر، كان باديًا لي أن الهوة واسعة جدًا بينها وبين والديها، وأن هناك حائلًا كبيرًا يحول بينهما، أخبرتني أنها لن تدعهم يملكونها أو يزوجونها زواجًا عائليًا بالقوة، ولن تخضع لمنظومة اجتماعية بائسة.

حاولت النقاش معها فأنا أيضًا عربية، وليس كل ما تقوله صحيحًا، ربما هناك بعض التجاوزات التي يرتكبها الأشخاص عن غير فهم، أو التعرف الخاطئ على المعتقدات، وأن أخطاء البعض تجد رواجًا كبيرًا من جانب الإعلام وغيره، إلا أنها أصرت، وبدأت تبكي عندما تذكرت شيخ المسجد عندما أخذتها معي مرة إلى هناك، هل تذكرين أنه لم يجبني إجابة عقل أو إقناع؟ بينما كان يصرخ دائمًا "لا، لا، حرام" دون أن يذكر السبب.

كانت الفتاة محقة ففي هذا اليوم لم يستمع إلى تساؤلاتها بصوت العقل، بل كانت إجاباته نفي قاطع دون ذكر أسباب، كان يجيب بلغة عربية لا تفهم هي منها شيئًا إلا تعابير وجهه القاسية الغاضبة، وهل كانت هذه الفتاة تبدو أكثر تفهمًا لو أن الشيخ كان أكثر لينًا وأكثر مرونة في الحوار؟ كيف لها أن تفهم ما يقوله شخص أتى من أعماق الريف الضيق إلى وسع الحرية ليجيب دائمًا بـ"لا" الغاضبة؟ الهوة واسعة بينها وبين الأشخاص وليس بينها وبين الدين كما أخبرتني بكل إصرار، ليس عندي شيء ضد الإسلام لكن ضد هؤلاء؛ تقصد من يطبقون الإسلام، كنت أفهم ما تقصد.

تركني رجال البوليس أدخل بعد أن تحققوا من هويتي، حاولت التحدث مع الأب الغارق في البكاء، حدثني قائلًا:

لا أصدق ما يقولون عن ابنتي، هل حقًا هي قاتلة هل هي إرهابية؟ ماذا يقولون عنها؟ إنها ابنتي، طفلتي، غربتي، وحياتي! ضاع كل شيء.

أخطأت، أنا القاتل قد تركتهم بعيدًا بسبب العمل، وعندما قررت أن أجمع شتات العائلة أخيرًا، وكانت ابنتي في الدراسة الثانوية، وظننت أن الحب عاد يجمعنا بعد أن قتلت الوحدة والغربة أرواحنا، أخيرًا عاد إلينا الحب.

كانت ابنتي كالملاك الصغير أتت إلى هنا سعيدة مبتسمة، وخاصة عندما التحقت بالثانوية كزهور الياسمين العربي تفوح سعادة إلا أنها بدأت تتغير، وبعد مرور ثلاثة سنوات في الجامعة تبدل كل شيء، هربت، وانفجر في البكاء، لم تهرب فقط منا لكنها هربت من الحياة بأكملها.

بينما هو يتحدث عن الهرب كنت قد ذهبت بعيدًا أتذكر ذلك اليوم وأنا أتنزه قليلًا بين محلات السوق الكبيرة الموجودة على جانب النهر، كانت الشمس تنثر خيوطها، رائحة الكستناء المشوية والبرتقال والليمون تضفي نشوة وعطرًا دافئًا على المكان بالرغم من انخفاض درجة الحرارة، وكانت الأعداد كبيرة فقد خرج الجميع للتنزه من مختلف الأشكال والجنسيات، وكنت أتأمل مجموعة من النبات صغيرة الحجم كانت مزهرة رغم برودة الجو، فهي من نباتات المناطق الباردة.

تقابلت مع السيدة نفسها لم أعرفها، حيتني وعندما سألتها عن ابنتها التي اختفت منذ فترة، بدأت تبكي وأخبرتني أن ابنتها قد رحلت إلى المجهول، للغرق في بحور الغرباء، وأنها من اختارت ذلك، أخذتُ أطمئنها أنها ستعود، وأن التجربة خير وسيلة للتعلم، فهي ستتعلم حتمًا أن طاعة الوالدين والقيم أمر حتمي، فهي الآن شابة ولا تملك من الخبرة إلا قليلًا جدًا، وأنها عاجلًا أم آجلًا ستتعلم شيئًا من الحياة، والسفر هو المدرسة الكبرى، وأنها ستعود إلى رشدها يومًا ما.

وخفضت رأسي بندم قاتل يا ليتني استمعت إليها، قد حاولت الفتاة عدة مرات الاتصال بي ولم أجد وقتًا لها.

انتبهت على صوت المحقق يسأل أباها المتهالك في مقعده وقد أحضر له رجل آخر كوبًا من الماء تناول معه حبة من الدواء، ثم بدأ يكمل إجابته بينما شخص آخر يكتب كل ما يهمس به من كلمات.

قد أرسلت لنا رسالة من فرنسا لم نستطع فعل أي شيء، فهي قد بلغت السن القانوني، والقانون لا يعطينا أي سلطة عليها، هذه هي القوانين وعلينا الطاعة وإلا سيتم اتهامنا بانتهاك القانون، وسأتعرض

للسجن، وربما التشهير على صفحات الجرائد مثل الكثيرين مما فعلوا هذا.

لم يكن لدينا رقم تليفون أو عنوان بل حاولنا أن نتصل على الرقم الذي أرسلت منه الرسالة لكن لم يجبنا أحد، وكنت قد أرسلت إلى صديق لي في فرنسا ليبحث عنها، لكنه لم يصل إليها، وأخبرنا أنها فترة يمر بها البعض، وسوف تعود إلى رشدها قريبًا.

لم نفهم حتى الآن سر التغير المفاجئ الذي حدث لها في الفترة الأخيرة، والسعادة التي انطفأت في عيونها، وقد بدأت تميل إلى العزلة والابتعاد عن زميلاتها، والتحدث طويلًا على مواقع التواصل، لم نعد نعرف عنها شيئًا أصبحت في حالة انفصال تام عنا.

تحدثنا مع الأخصائي الاجتماعي الذي أتى عدة مرات إلى المنزل للحديث معها، لكنه لم يقدم أي حلول عملية، وأخبرنا أنها بحاجة إلى أصدقاء وربما تعرف صديقًا ما.

أتى صوت المحقق: «الرجل متعب جدًا وبحاجة إلى قسط من الراحة، نتركه يرتاح قليلًا».

صمت الرجل وظل بلا حراك، كان جهاز التلفاز يبث نشرة الأخبار الفرنسية، ربما هناك جديد، يقول جيرانها في فرنسا: «إنها فتاة غريبة الطباع، وأنها كانت تقيم مع شاب غريب، وأنهما دومًا بالخارج أغلب الوقت في المكان الذي يعملان فيه، وهما الآن متهمان بالانتماء إلى جماعات إرهابية»، يقول بعض من يعرفهما وخاصة صاحب البار الذي يعملان فيه: «إنه طردهما من العمل بعد أن رآها في أحد الأيام ترتدي ثيابًا غريبة، ثوب أسود طويل ولا يظهر منها إلا فتحة صغيرة لعينيها، لم

أعرفها كانت آتية لتأخذ باقي أشيائها، كانت غريبة ولم تتحدث كثيرًا» وأكمل: «لم أفكر أن أسأل عن شيء، فقط حمدت الله أني تخلصت منهما، وكان غيرهما الكثير يود العمل هنا ولذلك لم أفكر، فطردتهما».

دخلت إلى الغرفة حيث قابلتني عيون والدتها الحزينة، ودار بيننا حوار صامت دون أن ننبس بكلمة، كأنها تسألني إن كانت ابنتها على قيد الحياة! لم أعرف كيف أرد عليها، لا نعرف شيئًا.

رجال البوليس هنا للتحفظ على العائلة بعد أن وصلتهم أوامر بذلك، ماذا لو كانت الفتاة بريئة ولم ترتكب هذا الجرم البشع الذي اتهموها به؟ هل لديهم أدلة؟ أمجرد لبس ثوب أسود يكون اتهامًا بجرم كهذا؟

لا أعرف هذه البلهاء! ربما أقنعها أحدهم أن الطريق إلى الجنة يكون بالدم والأشلاء وقتل الأبرياء، فكل الأديان تدعو إلى السلام وديننا كذلك.

جاء صوت من التلفاز لشخص يتحدث يقول: «إن الفتاة الإيطالية من أصول مغربية تنتمي إلى جماعات إرهابية، وأنها تعرفت على أحدهم عن طريق مواقع التواصل، وأنهما كان يخططان معًا للقيام بعمليات إرهابية لولا اكتشاف أمرهما».

ما زلت أفكر ما هو الدليل على ما يقولونه؟ وكيف وصلت الفتاة إلى هذه المنطقة المظلمة بهذه السرعة؟

واستمر حوار الأعين الحزينة بينما عيون السيدة تذكرني ألم أخبرك أن عالم الحرية واسع بما يكفي؛ ليغرق الضعفاء في دروبه تحت غياب الدين والقيم والرعاية الاجتماعية والنفسية؟

أجابتها عيوني الصامتة، أعرف أن هناك شيئًا ما متوقف لا يعمل، ربما يكون صوت الحوار بين الأفراد من جنسيات مختلفة، وخاصة إذا كانت هناك فئة معينة تتعرض للإساءة والاتهام من قبل فئات المجتمع متعدد الثقافات، وعدم وجود حوار حقيقي لتوعية الشباب بكل الطرق والوسائل. كانت عيناها الصامتة تسأل هل أنا فقط المسئولة عن ضياع ابنتي؟ قلت فى نفسي: قطعًا لا.

عاد أبوها يكمل الحديث إلى المحقق والصدق الممتزج بالحزن يتساقط من عينيه، فهو لم يكذب، هو لا يعرف شيئًا عن ابنته منذ أن هربت – سافرت – بحماية القانون الذى يسمح لها بالانتقال بلا عوائق ودون تدخل من العائلة، لم يكذب عندما أخبرهم أنه خرج من بلده لأول مرة مهاجرًا؛ كان يقصد بلدًا آخرًا، لكن الإنهاك والمعاناة اللذان تعرض لهما في رحلة سفره الطويلة الشاقة أردته في نوم عميق؛ ليستيقظ فيجد نفسه في آخر بلد وقف القطار فيها وهي إيطاليا، نزل من القطار وقد أيقن أن الله اختار له هذه البلد، وأنه أحبها منذ أن وطأتها قدمه، نزل ونزلت معه أحلامه مكسورة الأرجل تسعى للانطلاق، فتح ذراعيه للعمل، ضحى بكل شيء حتى تعيش أسرته، التفت إلى المحقق قائلًا: «أنا أعمل من الثامنة صباحًا حتى الواحدة ليلًا! كيف بالله عليك وأين أجد الوقت لأسرتي؟ إني أعمل بساعدي ولا أملك إلا أمانتي».

تذكرت أن ابنته كانت تبكي كثيرًا متأثرة بما تراه كل يوم في التليفزيون من أحاديث عن المهاجرين، وعن الدين والاتهامات والنظرات التي توجه دائمًا إلى المهاجرين، والتي بدأت تعترضها أيضًا، أفقت على صوت الرجل يقول:

أنا ما أتيت إلى هنا لانتزع الحياة من أحد بل أتيت من أجل عائلتي، وابنتي انتزعت من بين أحضان هذا المجتمع؛ لقد صمتت ابنتي، صمتت وهي بيننا في مجتمع متحضر لم تسمعه ولم يسمعها، كيف انقطع التواصل بينهما بينما وصل إليها صوت الشر القادم من بعيد – يتخفى بنعومة وسهولة – ليدخل من أبواب كثيرة ومنها الدين؟

كنت أستمع إلى مقترحات المعد التلفزيوني وضيفه، وهما ينثران بذور الخوف والكراهية هنا وهناك، فهو يقترح أن تكون الفتاة على الحدود هاربة في طريقها إلى داعش مع مجموعة من الشباب ويحذر أنها ربما تكون مسلحة.

كنت أشعر أن الفتاة في عداد الموتى؛ لقد سقطت في الهوة، وهذه عائلتها والكثير من الأرواح ستدفع الثمن دون أن نحرك ساكنًا سوى الضجيج الذي حتمًا سيصمت وينسى بعد أيام.

* * *

٥. ماسيليا

(ماسيليا) اسم أمازيغي يعني الفتاة الرشيقة الجميلة.

وقفت في جانب الغرفة منكمشة ترتدي الصمت، تكاد عيناها تثقب زجاج النافذة هربًا إلى هناك.

كنت أمام القاضي أجمع شجاعتي وأنا أتجول ببصري مرة إليها ومرة إلى الجمهور الجالس من الصحفيين والمصورين وبعض المحامين؛ أتوا للتعلم والبعض الآخر من أصحاب المعاشات دفعهم الفضول لرؤية تلك السفاحة التي يتحدث عنها الجميع، أجبرت نفسي على التماسك حتى أستطيع أن أدافع عن هذه الصامتة البائسة.

بدأ كبير القضاة يدق بمطرقته على الطاولة أمامه، بدت لي وكأنها دقات الحرب معلنة بدء الجهاد حياة أو موت، وقد بدأ لي شعره الرصاصي الطويل كخيوط زنزانة حديدية تطوق المكان والزمان، وكانت نظرات القضاة من حوله غامضة ساخرة تحمل من الكبر ما يثير الانتباه، وهناك في أعلى الغرفة رسم شمعدان كبير؛ شمعدان كبير كالتي استعملته هي في تنفيذ جريمتها.

كانت هي بعيدًا بعيدًا تسبح بخيالها، تركض في أطراف بلدتها البعيدة، مدينة صغيرة معلقة على جبل رائع الخضار في الربيع، شديد بياض الثلج في الشتاء، كانت تجري وكانت لا ترد ولا تستمع إلا إلى

صدى صوتها يغني بين الجنات الجبلية، تتساقط من سلتها الوردية ثمار التوت والليمون الجبلي، وتركض وراءها الفراشات تداعب الزهور وتنثر الندى على ذرات الهواء، فيبهج كل شيء يبتسم كل شيء.. الوطن.

والدتها تلك المرأة النحيفة التي ترتدي ثوبًا جزائريًا تقليديًا، وعلى رأسها عصابة دائمًا ومريول المطبخ لا يفارقها، كانت رائحة الطعام الشهي تسبقها أين ذهبت، نشأت ماسيليا في عائلة تقليدية في مدينة تنتمي إلى الأصول الأمازيغية العريقة، كانت كالعادة تجلس كثيرًا مع صديقاتها من بنات البلدة للغناء والرقص الأمازيغي الساحر؛ حيث الطقوس الفريدة تمتزج مع الطبيعة والموسيقى، فتلون المكان بروعة مميزة.

كان ذلك الغريب القادم من بعيد مع بعثة من الغرباء أتوا لاكتشاف الذهب والتنقيب عنه في صدر الجبال العالية.

مرت الأيام سريعا وكان كل يوم ينسج حولها الخيوط العنكبوتية فتلتف بها روحها النقية الساذجة فرحًا، كان قد وعدها أن يعود لخطبتها من أسرتها حتى يأخذها معه إلى العالم الجديد، لم ينتظر حتى تبلغ السن القانوني! بل كان يعشقها بكل طفولتها، كالعادة يبحث دائمًا عن بكارة الأشياء،

كانت البلدة كلها تتحدث عنه وسحر كلماته، ما زال يناديها، يلفها بخيوط من حرير لامعة تشبه أكفان مومياء فرعونية، كان كل شيء بهدوء البحر المبتسم، الفتيات يتراقصن على الأغاني الشعبية والعامية، ويتفنن في تقديم التحية للزوج القادم من بعيد.

وقد أتت عجوز يُقال لها: عرافة البلدة لحضور حفل زفاف ماسيليا، وقد تسببت في موجة من التساؤلات الغامضة والخوف بين نساء البلدة، فالعرافة لم يكن يعرفها أحد؛ كانت تحكم المدينة من بعيد، لم تحضر كثيرًا إلى البلدة، بل تكتفي بإرسال تعاويذها، فيسارع الجميع في تلبيتها وتطبيق قواعدها بدقة، كان لها أعوان يساعدونها ككل ملوك الأرض، فلم تكتف بالسيطرة على القرية بل ساعدوها على نشر سطوتها بالخرافات والأكاذيب، ولم يكن قدومها إلا لتحية الزوج القادم من بعيد.

طلبت العجوز أن يحضروا لها قطعة من الخبز، وبعض الأعشاب، وكذلك غرفة من طين الجبل، لبت بعض النساء على الفور قبل أن تثور ثورتها؛ إن لها سلطان تتوارثه الأجيال كبيرها وصغيرها.

طلبت الحكيمة أن تعصب عين الفتاة وأن ترقص رقصة الحياة الشهيرة، وضعت الأشياء المطلوبة على الأرض في أماكن متفرقة، وعليهم أن يلحظوا أي شيء تطأه قدم الفتاة أولًا، لم تكن المرة الأولى التي تقوم العرافة أو الدجالة بتعاويذها، كانت تترك الحيرة المصحوبة بالريبة في النفوس، وكأن كل ما تقوله أقدار كتبت بقلمها، لم تكن ماسيليا المسكينة تعرف أنها لو وطأت الخبز فسيعم الفقر الأرجاء، وسيموت أهل بلدتها جوعًا، وإن وطأت العشب فستنتشر الأمراض المصطنعة والغريبة، ولن يكون دواء، وإن وطأت الطين فسيعم كل ذلك إلى جانب الذل والهوان، وسيكون الهروب والهجرة قدرًا محتومًا وأملًا مزعومًا للشيوخ والشباب.

ظلت ماسيليا تتراقص وتتمايل مغمضة العينين وهي لا تدري

أي قدر سيكون، ماذا سيحدث لها؟ كانت شابة جميلة تحمل شعرًا أسودًا طويلًا كثير التجاعيد، وجه أمازيغي أسمر اللون كتعاريج الجبال، تنحت في ملامحها قداسة أميرة فرعونية، تتخلل شعرها خيوط وضفائر فضية كالشلالات المنهمرة بالخصب والنماء؛ عيون خضراء بلون الطحالب الساطعة تحت مياه النهر هي تتمايل على أنغام الموسيقي الساحرة، وتلاحقها عيون الزوج المزعوم؛ إذا باقدامها تلامس التربة، قبضة طين الوطن، شعرت به بين أصابعها يحترق؛ يتحول إلى رماد قاتم يخنق الأنفاس، لم تفهم شيئًا لكن قيل لها: إنك ستموتين غريبة عن هذا الوطن؛ إذن هي الغربة.

اصفر وجه نساء العائلة بينما احتضنتها والدتها في حضن طويل، وبدت وجوه رجال البلدة باهتة بلا لون أو نظر، فهي ليست الأولى التي يضحي بها رجال البلدة، فقد قدموا قبلها العديد والعديد، كانت كالمحكوم عليه بالموت، وكان الجميع يصدق العرافة وأعوانها.

انتهى حفل الزفاف وبدأت الزغاريد الأمازيغية تسبق شمس الصباح في تحية العروسين، وتكمل طقوس الاحتفال بالضحية الجديدة.

تذكرت هي كيف كانت رحلة وداع بلدتها شاقة ومؤثرة، كان الفرح المر يسكن قلبها، مر الخوف من العالم المجهول رغم طمأنته لها دموع صامتة متحجرة، كلمات قليلة حزينة أنفاس تخبو، قليل من الأمل.

أفاقت على حلم واقع جديد، كون جديد بلا أحلام، زهور جديدة بلا عطور، طبيعة جديدة ووجوه لم ترها أبدًا.

كانت تنظر في الوجوه، ربما تتعرف إلى شيء ما، لكن لا شيء، كل شيء يلهث، كان كل شيء يركض من حولها، كان بيتها جميلًا ومنظمًا على طراز لم تره من قبل، طلب منها أن تترك ملابس البلدة جانبًا حتى تعيش حياة جديدة، قبلت على استحياء، بعد رفض ومعارضة طلب منها أن تخلع ذلك الوشم عن ذراعها، وكان مفتاح الحياة قد نقش على ذراعها منذ طفولتها، وكتب بجواره حروف اسمها العربية.

كان كل شيء مبهرًا، فقد أصبح الغريب هو الزوج والأهل والوطن، بينما لم يعد الماضي غير حنين يهاجمها أحيانًا ويعود كثيرًا من حيث أتى.

كان العمل بانتظارها، كانت تعمل طوال اليوم وطوال الليل، وهي الآن عبد أسير؛ خادمة.

مرت الأيام سريعًا، كانت تلهث وراءه طوال اليوم، بينما هو قد تفرغ لنزواته فأصبح شغله الشاغل الشرب، والنساء، وجمع المال، وبيع تلك الشمعدانات الكاذبة – إلى بلدتها – بعد أن أوهمتهم الدجالة أنها تعطي النور.

ظهر كل شيء؛ لم يعد هو، وكذلك لم تبق هي بثوب النقاء الذي أتت به، قالت له يومًا:

"لماذا لا تتركني أعود إلى بلدتي؟".

فما كان منه إلا أن احتضنها بقسوة، ثم خرج كعادته.

لم تنجب؛ أصبحت كشجرة بلا جذور؛ بلا فروع، بلا ثمار، ازدادت وحدتها، وبدأ الألم يمد ظلاله شيئًا فشيئًا.

كانت تشعر بسجن يكبر كل يوم، سمعت صوت الطبيب المعالج وهو يقول له: إنه انهيار عصبي شديد، ماذا حدث؟ رد الزوج مؤكدًا أن لا شيء، وأن زوجته فقط تعاني الوحدة، طلب منه الطبيب أن يأخذها إلى مكان لتهدأ، وتستعيد الحياة، انصرف الطبيب الماكر بينما رمقته هي بعيون صامتة صارخة كاذب كاذب! لماذا لم تخبر الطبيب عن تلك الأشباح التي تسكن غرفتي؟ أتظن أني مجنونة؟ كانت ترى الكثير من التخيلات وقد أخبرت الطبيب بذلك، إنها آلام الغربة.

كان الحزن يعقد لسان تلك الفتاة الحزينة، ولم تعرف إلا المسجد، وعندما قررت الذهاب هناك طاردتها الأوهام، وأغلقت عليها أبواب الرحمة حتى هربت.

التخيلات تسكن كل شيء، وكانت تبدو طبيعية وسط النساء، وخاصة صوفيا التي تتابع معها وتساعدها طول فترة العلاج.

مرت سنوات حاولت فيها أن تعود إلى بلدها لكنه كان يرفض، فهي مصدر ثرائه، زادت حالتها سوءًا بسبب تلك الخيالات القاتمة التي تطاردها، والأوهام التي حطمت كل أحلام عودتها، وأيقنت أنها تقترب من نهايتها بعد أن رأت لقب مجنونة فاسدة في عيون الجميع؛ إذن أنا مجنونة، استسلمت بغير مقاومة تنقذ ما تبقى لها من الحياة، في يوم من الأيام جلس هو في الغرفة المقابلة وقد طرقت الباب، أجابها: "ادخلي" جلست بهدوء أمام مكتبه وقد طلبت منه أن تضع أغنية أمازيغية لترقص على الذكريات؛ طبعًا مد يده لها للرقص معها، وبعد قليل ساد الصمت، فقد قتلت الأشباح الذكرى، أمطرها بكلمات الحب والوفاء ككل يوم بينما هو يمطرها بالقبلات بكلمات الحب

عادت تهذي من جديد، ورأت شبح امرأة شابة يطاردها إلى أن أغلقت غرفتها، وانكمشت في فراشها، انتابتها نوبة بكاء عميقة، ولم يهتم لها أحد، لم تعرف أبدًا من هم النساء الشابات اللائي يطاردنها! هل هن أيضا سجينات مغتصبات في القبور؟ فقد كان هو غارقًا في الخمر يقضي وقته مع تلك الأشباح التي تحلق في كل مكان، مرت لحظات مرعبة تذكرت العرافة العجوز وأعوانها، تذكرت تلك الكائنات الغريبة التي أحضرها الغرباء، معهم من هؤلاء؟

في اليوم التالي كانت شديدة الشحوب تنسحب عينها تحت تاجها الأسود الذي يزداد شحوبًا وتفرقًا غارقًا بنهر الدموع، أخبرها أن الأموال قد نفذت، وأن عليه أن يجد المال، نشر جنده في كل مكان.

أتى الطبيب مرة أخرى وقد طلب منها أن تتوقف فورًا، وأن تبدأ بالصراخ حتى تسترد عافيتها، وأنه لا يوجد تفسير واضح لهذه الحالة التي تعاني منها؛ إلا أنها ما أن فعلت حتى انهالت عليها الأشباح وأعادتها إلى عالمها، ألم شديد في رأسها ودماء تنزف، دخلت إلى الغرفة الأخرى لتجد الأشباح حاولت أن تهرب لكن جسدها قد تجمد، هناك شيء غريب! لقد ذابت الأشباح وتمثلت لها وجه الغريب، وجه الرجل الذي كان يغتصبها كل يوم منذ زواجها المزعوم، قبل أن تفكر كانت قد أمسكت بالشمعدان المعلق على الحائط وبدأت تضرب به رأسه حتى سقط على الأرض، وسقطت هي قتيلة.

حملتها سيارة البوليس، أتت القبيلة كلها إلى المحكمة لتشهد عليها، كان الخوف المهزوم المنتفض في عينيها يحتضر، بحثت عن وجه أمها فلم تره، وقد رأت وجه الغريب في كل الوجوه، فهو لم يمت

بل هي القتيلة، لم تحرك ساكنًا والقاضي يدق بمطرقته معلنًا حكمه بالإعدام شنقًا.

لم تعد تدرك شيئًا، كانت تقف أمام صوفيا والآخرين، انتفضت صوفيا وأخذت تبكي وتصرخ صرخات مكتومة، بينما هي تهرب من ضحكات الأشباح في كل مكان، وانسحب أهل بلدتها بأعين ذليلة إلى جنتهم المسلوبة لتقديم القرابين إلى الدجالة والأشباح وعروسة جديدة لم يحن بعد ميعاد رقصتها الأخيرة.

استيقظت صوفيا على يد ياسمين توقظها وتهدئ من روعها: "ماذا حدث يا صوفيا؟ استيقظي" يا للحلم السخيف! أعطتها ياسمين كوبًا من الماء، قد رأت مدينة تنتحر، مدينة تقدم أبناءها قرابين وتلقي بهم على أجنحة الموت غرقًا! مدينة تقودها دجالة!

تذكرت صوفيا أنها نامت وبين يديها كانت تقرأ تقريرًا عن الإحصائيات التي تعدها عن المهاجرين الذين استقبلتهم تيارات الماء، فذابت أجسادهم بين شرايين المتوسط الرحيم، ليتنا نفهم رسائله.

❊ ❊ ❊

٦. القتل المشروع

نظرت إلى التابوت المغلق أمامها، بدا لها شفافًا كأنها ترى ما بداخله، تمثلت لها حوائطه نوافذ تتسلل من داخله روحها دون حواجز، أخذت تفتحه بكل قوتها رغم المحاولات الكثيرة لمنعها، ألقت بجسدها على الجسد النحيف داخل التابوت الصغير تنادي طفلتها النائمة، لا مجيب.

كانت الطفلة البالغة من العمر ١٥ عامًا ترقد داخله، ألبسوها ثوب زفاف وردي شفاف مطرز بخيوط فضية اللون وعلى وجهها منديل من الحرير وردي اللون، ترقد طفلة هادئة كأنها تنام في حلم جميل حاولت إيقاظها أصرت بقوة على فتح التابوت المغلق، ومدت يدها تتحسس ابنتها مدت يدها لتشق الثوب عن صدر الطفلة تتحسس قلبها خيل إليها أنه ما زال ينبض، تسمع ضحكاتها تكشف ابتسامتها عن أسنان بيضاء كاللؤلؤ تتفجر من عيونها ينابيع الأمل والبهجة.

هي الطفلة التي ملأت البيت بهجة وسرورًا، تبدل فجأة كل شيء، توقف وجه أبيها عن دلاله المعهود، تبدلت نظرات الحنان شيئًا فشيئًا إلى بعض الشدة الغريبة، أصبح كل شيء بطعم القسوة المرير، كبرت وكبرت معها القيود هي الآن تحتفل بعيد ميلادها الرابع عشر، وعليها أن تودع مرحلة من حياتها إلى مرحلة جديدة كانت الهمسات في البيت

تتزايد، شيء من الريبة يتسلل إلى قلبها على الرغم من أنها لا تفهم كل الكلمات التي تُقال أمامها كان عليها أن تسافر لقضاء الإجازة مع والديها في بلد والديها، كم كانت سعيدة لذلك، فهي سترى مرة أخرى البلد التي أتت منها طفلة ذات ثلاثة أعوام لا تذكر شيئًا غير بعض حكايات أمها، وكذلك بعض الوجوه الضاحكة التي تحدثها عبر الإنترنت مداعبة إياها بالغربية، لم تكن تدري أن الأقدار كتبت مصيرها وأن والديها اختارا لها مصير ما يشبه مصير كل بنات بلدتهم إلا ما رحم ربي.

بدأت الحياة في بيت والدها تتحول شيئًا فشيئًا إلى سجن صغير، بدأت تنظر إلى الحياة من وراء النوافذ تلك الطفلة الصغيرة التي تركض في أرجاء المنزل والمدرسة ركض عصفور لا يهدأ، هي الآن ذبابة ملتصقة وراء زجاج النافذة لا يدركها الفهم كي تعرف ماذا ينتظرها، هي تعرف أنها ذاهبة إلى إجازة لم تكن تدرك بعيون طفلة لم تر من العالم أي خيبات؛ لم تر غير تدليل معلماتها وضحكات أصدقائها، وما زالت تحيا معهم حيث تركض وراءهم، ويتقاسمون الشيكولاتة الساخنة اللذيذة كل صباح، لم يخطر ببالها أن الجليد الذي تلهو به مع الأطفال على شكل كرات قد يتحول إلى جبل لا يُطاق، يطبق على أنفاسها ويخنق الأنفاس في حياتها الوليدة، رسم كل شيء بمهارة تمهيدًا لنقلها إلى سجن كبير يتم إعداده بكافة وسائل الحياة الحديثة، قررت العائلة السفر كان عليها أن تودع أصدقاءها وأساتذتها؛ معلمتها الحبيبة فهي أول إجازة إلى بلدها في آسيا التي لم ترها مطلقًا وسط ضحكات زملائها في المدرسة الذين أوصوها أن تحضر لهم بعض الهدايا التقليدية من هناك، والحلويات والمنتجات التقليدية لبلدها، كانت تحلم عند عودتها أن تحضر ملابس تقليدية لصديقاتها ليتعلمن

الرقص الهندي الشهير والذي يعد من سمات الإقليم، وتسمى رقصة المانيبوري الخرافية، وكانت ترى المشاهد التقليدية للزواج في بلدها الذي لا تعرفه حيث لا يكتمل العرس إلا بالحنة والورود الحمراء والصفراء، كذلك فساتين العرائس المطرزة ذات اللون الأحمر القاني، هذا كل ما تعرف عن بلدها، لكن للحقيقة دائمًا وجه آخر؛ كانت هي تضحك مع صديقاتها وهن يقلدن العروس، وتتمايل أجسادهن في الرقصة الشهيرة، بينما المعلمة هناك تبحث في أمور أخطر من ذلك، لم تكن تعلم أنها لن تعود إليهم أبدًا غير قصة على أوراق الجرائد الصفراء.

كانت الطفلة فارعة الطول ذات شعر أسود كثيف بلون الليل جميلة الملامح خفيفة الظل، أحضرها والدها في عمر ثلاث سنوات من بلدتها الباكستانية الصغيرة، كان زميلاتها يسمينها بالأميرة الباكستانية نظرًا لجمالها الذي يشبه شخصية ياسمين في كرتون علاء الدين، كانت تتحدث الإيطالية بطلاقة تتمرد وتلهو ككل الأطفال إلا أن شيئًا ما سيحدث.

أتى والدها إلى العمل منذ سنوات طويلة، وقد استطاع أن يكوِّن ثروة من المطعم الذي اشتراه على أطراف المدينة، عندما يتبدل كل شيء إلا العقل فإنه لم يتغير شيء؛ لم تكن تدري وهي تطفئ شموع عيد ميلادها أنها انطفأت إلى الأبد.

أجابت بنعم، وجهها مغطى بكومة من الغيوم، والسحب السوداء التي لا تنكشف إلا بعد بكاء مرير، وما تلبس أن تعود من جديد.

كانت الصدمة أكبر منها، وأصعب من أن تفهم ما يحدث حولها، فقد كانت تظن أنها ستذهب في رحلة جميلة إلى بلدها الذي لم تعرفه،

ماتت سعادتها فور ميلادها وهي تؤمر أن تجيب بنعم، فهم قرروا أن تتزوج، وكانت أمها تجمع الكثير من الأغراض والملابس، فهي ستتزوج من رجل باكستاني ثري.

بدأت تفكر في صديقاتها، معلمتها التي تحبها كلما حاولت أن تفكر فهي مرشدتها، أرسلت رسالة إلى معلمتها تخبرها فيه بقرار والديها، وبسعادتها التي ماتت قبل أن تولد.

لم تكن المعلمة تدرك أن الحرب التي تخوضها ضد زواج القصر سوف تطول تلميذتها، وقد راودها الشك العميق عندما أخبرتهم الفتاة أنها ذاهبة في إجازة طويلة وها قد تأكد ما تخشاه، وها هي ضحية أخرى سيتم إضافة اسمها إلى القائمة إن لم تفعل شيئًا.

اتصلت فعلًا بإدارة المدرسة، وأبلغت السلطات قبل أن تلقى الطفلة نفس المصير للكثيرين من قبلها، والمعروف دائمًا أن المسئولين النفسيين والاجتماعيين دائمًا في حالة بحث وتحرٍ حول العائلات الأجنبية التي عُرف عنهم القيام بعادات وتقاليد معينة، كم من زهرة جميلة ذهبت إلى هناك، وعادت جسدًا مكبلًا بالخطوط، ونفس ذليلة خاضعة؛ اعتادت الطبيبة النفسية أن ذهاب الفتيات في سن معينة لا يكون إلا لسببين:

الأول: هو ما يسمى بالختان؛ حيث تتعرض الطفلة لصدمة هائلة وقهر نفسي؛ مما ينعكس بعد ذلك، وربما تظهر حالات الإنطواء والعنف إلى جانب حالات من الانتحار بين الفتيات في هذا العمر إن عادت الطفلة إلا أنه في الغالب يتم تزويجها بأول رجل يقبل به أبوها.

اتصلت الباحثة الاجتماعية بصوفيا؛ لتخبرها برسالة الطفلة، وأن عليها أن تتحرك لتعرف الأمر قبل أن يشعر الوالدان بتدخل الشرطة، ولم تكن الحالة الأولى التي تواجهها صوفيا في هذا المجال؛ كانت لديها الخبرة في العمل القانوني والاجتماعي، وتعرف أن الطفلة في خطر.

كانت صوفيا غاضبة جدًّا؛ تركت كل ما تعمل، وأسرعت إلى المدرسة لتتحدث مع المعلمة حاولت تمالك نفسها، وهي تتصنع الجوع وأنها بحاجة لقطعة من البيتزا، وذهبت إلى والد الطفلة، وبدأت تتحدث مع الوالد الذي كان شديد الحرص عندما سألته عن طفلته وأخيها، وإن كانوا بحاجة إلى مساعدة في دروس الإيطالية عبثًا حاولت، فقد كان يعرف خطورة ما يريد القيام به أخبرته أنها تعرف كل شيء، وأنها لن تتركه يرتكب تلك الجريمة التي يفكر بها، أخذت تنبهه إلى خطورة ما ينوي القيام به وأن عمليات الختان ذات أضرار بالغة على الطفلة، وأنها قد تتسبب لها في أذى كبير جدًّا قد يُلازمها مدى الحياة، وقد حذرته أنه سيتم وضع الطفلة تحت المراقبة بعد ذلك، وأنه سيتعرض للسؤال أمام القاضي؛ لم يجب بشيء، كان يبدو لها أنها تسكب الماء على الرمال، وأنه لا حياة لمن تنادي، وأنه يتمسك بإرثه أكثر من تمسكه بحياة ابنته، ضربت صوفيا الحائط بشدة وقد هيأ لها أن تشق رأسه لتخرج ما فيه من أقذار، حذرته للمرة الثانية، وأنها ستقوم بإبلاغ السلطات؛ لم تكن تعرف أنه قد عقد الصفقة، وقبل أن تتدارك صوفيا الأمر كان قد رحل في الصباح كما كان مقررًا هو وعائلته في رحلة مفتوحة؛ حيث تنفيذ حكم الإعدام في ابنته، عندها سيعود ولن يتمكن منه أحد، وستطوي رياح النسيان صفحه الألم وتفتح أخرى.

على مسرح الحياة الهذيل ناداها أبوها ليراها الضيف، كان الرجل الجالس بجوار والدها يضحك ضحكة ماكرة كريهة، لم تلبث أن أصابتها بالتقيؤ، طفلة صغيرة في جانب الغرفة تتقيأ حياتها الماضية وحياتها الآتية مع هذا الرجل! فقد كان مجرد النظر إليه يذكرها بوجه الشرير الذي يطاردها في الألعاب الإلكترونية.

حاولت طرد الفكرة، طفلة صغيرة أخذت تصرخ في غرفتها وتضرب الأبواب بأرجلها إلى أن سمعت صوت أبيها من بعيد، فاختبأت تحت الفراش بعد أن غسلت وجهها، فقد تركت ابتسامة ذلك الرجل كل قاذورات الأرض على وجهها، لا تعرف كم من الزمن مر لكن تعرف كم من القيود قد نصبت، كانت تحضر دفترًا صغيرًا لتكتب باللغة الإيطالية الأحداث اليومية، كانت أمها تعد للزفاف بينما هي تستعيد السيطرة على أحلامها، تتذكر كل شيء؛ زملاءها، معلمتها، بلدها في إيطاليا، كل شيء لم تنسها تلك الزيارات العائلية شيئًا، كانت تنظر إلى العيون فترى أحاسيس مختلفة بين النساء؛ كانت عيون أمها هاربة دائمًا.

كان ثوب الزفاف وردي اللون مطرز بالفضي اللامع، خُيل إليها أنه نفس الثوب الذي رأته عندما أرسلوا لهم صورة جدتها العجوز بعد أن جهزوها للدفن.

اتصلت الأستاذة على صوفيا تتناقش معها إن كان هناك أخبار عن «أمل سادينا» الطفلة التي اختفت منذ حوالي عام ولم تعد؛ إلا أنه لا شيء، المطعم له مستأجر جديد، ولم تستطع السلطات الوصول إلى شيء، فكل خيط ينقطع هناك كالعادة، قررت صوفيا السفر إلى هناك لكن لم تحصل أبدًا على عنوان صحيح للعائلة.

لا شيء جديد تشعر به أمل غير نظرات أخيها الغريبة، فقد بدأت تشعر أنه يرتدي ثوب كل رجال البلدة الذي ألقي على كتفيه فزاده عمرًا، وقد اختفت نظرة الطفولة الحنون من عينيه وسكنت مكانها نظرة رجل ككل رجال البلدة، وجهه تغير مثل وجوه أهل البلدة، نفس القناع الغريب بلا ملامح.

أقبل اليوم الذي ينتظره الجميع؛ كان ملونًا بلون الفرح المر، توقفت توسلاتها إلى الأبد، فقد أيقنت أنها بلا جدوى، كانت عيونها الحمراء قد توقفت عن البكاء، وأصبحت فارغة لا تحمل شيئًا بعد أن يئست من نظرات الاستغاثة، وبدأت ترسل لعيون والدتها الهاربة إشارات موت في رسالة كتب فيها: ألبسيني اياه أن استطعتِ!

لم تفعل أمها؛ بل طلبت من بعض النساء بلا ملامح أن يفعلن ذلك، زيَّنَّها في طقوس جنائزية كدمية ميتة، نثرن عليها الزهور في رحلتها إلى القبر، كانت رغم طفولتها قد تذوقت الموت، لم تكن تعرف فقد نحروا طفولتها عندما قاموا بفعلتهم الشنعاء، ولم تعرف حتى الآن سر تلك الإبرة والخيوط التي مزقت روحها وجسدها لماذا يعذبونها؟ لا تعرف أي ذنب ارتكبت؟ لكن شيء ما قد مات فيها؛ إنها الحياة، لم يبق لديها غير روح خاضعة مستسلمة، كما أرادوها أن تكون، لم ترفع وجهها لم تطلب شيئًا حتى وهم يلونون شعرها الطويل بالحناء الحمراء، كانت تشم رائحة دماء طاهرة تفجرت من قلبها الذبيح، كان الكابوس ثقيلًا مرًا، اجتمع الجميع ليلهو بدفنها، كان وجهها القمحي قد تحول إلى البياض، وعيونها لا تعطي أي معاني ليست إلا وجه شبح بعيون سجينة في القبر، كانت ترى حياتها القصيرة

في شريط قصير؛ طفلة تبتسم تلهو، الماضي كانت تعرفه، الحاضر هو ذلك الحلم الكئيب الذي التصقت به بلا فرار، أما المستقبل فلا يعني لها شيئًا، لماذا لا يمكنها الفرار؟ هل لأنها ذبيحة؟ لماذا تصفق كل بنات البلدة والعائلة؟ هل لأنهن غرقن في الموت فلم تعد الحياة تعني لهن شيئًا؟

أركبوها سيارة مليئة بالزهور؛ لتزفها موسيقي صاخبة إلى قبرها، كانت العيون ترقب خطواتها المتوقفة، نثروا عليها من الزهور ما يكفي لقبرها، كان شعرها يقطر العطر الملون بالحناء الحمراء، فيتمثل لها دماؤها التي تهرب شيئًا فشيئًا، لقد بدأت مراسم الدفن؛ كل شيء مؤلم، خُيل إليها بكاء صديقاتها، دموع معلمتها المكتومة بجبال الحزن، صرخات والدتها المقبورة في غيابات الصمت، توقف الزمن! جسدها النظيف أقرب إلى الأرض بثقله، لوثته الدماء، قررت أنها تستحق العقاب، لم تعرف لِمَ تُعاقب؟ ربما لأنها أنثى؛ لأنها أنثى تستحق العقاب! بدت لها أنوثتها عدوها الأول، لم تنتبه إلى الرجل الكريه بلا ملامح، فقد كان مشغولًا في شرب الخمر الذي أحضره للاحتفال بجريمته بعد أن انقض عليها، لم يهتم لجسدها المرتعد، لم يهتم لصرخاتها الضعيفة الخائرة، انقض على جسد طفلة ميتة، مزق خيوط جسدها المحنط في أكفانه الحريرية، كان يمزق قلبها يقطع مع ضحكاته وتأوهاته المقززة شرايينها، أكمل الاحتفال بجريمته حتى سقط على أرض الغرفة.

هربت هي إلى غرفة أخرى ومعها الأنثى الضعيفة، الخائفة الغارقة في الدماء طلبت منها أن تجمع أشلاءها وترحل، اجمعي

أشلاءك وارحلي إلى أبعد قبر في أعماقي، نظرت إلى شعرها الطويل، قررت نحر أنوثتها؛ نحرت مع كل خصلة من خصلات شعرها شريان من شرايينها.

* * *

٧. الغرباء

انتهت صلاة العصر في المسجد الكائن في قلب المدينة الرائعة، وكانت الأمطار تعزف بعشوائية ألحانًا رائعة على السقف الزجاجي الذي يغطي الصالة الكبيرة وسط صمت وتسبيح المصلين الذين ما أن انتهى الشيخ تسلل بعضهم سريعًا للذهاب إلى عمله، وكسر الصمت صوت تليفون يرن فأسرع أحد الأشخاص العاملين هناك ليرد، وما لبث أن عاد بالخبر المشؤوم؛ إنه أحد أفراد الأمن يخبر الجالية العربية بأن هناك امرأة وشاب قد قضيا، وهما في إحدى مستشفيات البلدة، وأن لديهم هوية عربية، إذا كانت الجالية تهتم لأمرهما فعليها إرسال من يتعرف عليهما وعمل اللازم، وإلا فإنه في خلال عدة أيام سيتم إحراق الجثمانين كالعادة في تلك المشفى، أسرع الجميع في تساؤلات حول من تكون المرأة؟ ومن أي الجنسيات العربية هي؟ ومن هو هذا الشاب؟ تعالت صيحات الأسف هنا وهناك إلى أن قام الشيخ الذي وجد الفرصة متاحة لتقديم شيء من الوعظ في شكل درس صغير للجميع، وكأن الأقدار تسوق لهم العبرة والموعظة، واستمر الشيخ يخطب وفي النهاية دعا للمتوفين بعد أن حث الجميع على أهمية شراء مقابر إسلامية، وعمل جمعيات تنقل جثامين الفقراء إلى بلادهم الأصلية إذا لم يكن مع ذويهم المال اللازم لذلك، انصرف الجميع كل

إلى حاله، وتغيرت عبارات الأسف تحت الأمطار التي ازدادت غزارة، بصعوبة قررت العودة إلى المنزل بعدما أخذت رقم الغرفة، وعنوان المستشفى على أن أذهب في الصباح، قد أستطيع التعرف على السيدة، ربما هي من ضيوف المسجد الذين يأتون للصلاة وطافت برأسي ذكرى بعض النساء اللاتي اختفين فجأة، وبعد اكتشاف غيابهن والسؤال عنهن صدمنا؛ رد من يعرفهن بخبر وفاتهن، هذا هو الحال دائمًا في الغربة ربما تمر الأيام والشهور والسنين، ولن يسأل عن الغريب أحد! مر الليل كالمعتاد لم يشغلني الأمر كثيرًا، في الصباح أسرعت إلى المستشفى، وهناك رأيتها وتعرفت عليها، يا للمسكينة! فقد كانت حتى وقت قريب هي الأخرى تعاني من مرض شديد، اختفت أخبارها بعد خروجها من المستشفى وأخبرتني إحدى النساء أن لديها مشكلة كبيرة جدًا، فهي في رحلة بحث دائم عن ابنها الشاب الذي ما تلبث أن تجده حتى يختفى من جديد، ربما هو هذا الشاب الراقد في السرير المجاور لها، يا للمأساة، تركت لنفسي العنان لتذكر قصة هذه السيدة المسكينة، تركت لضميري كل الحرية ليؤلمني ويؤنبني لأني لم أسأل عنها منذ شهور طويلة، ها هي بوجهها الشاحب، وضمادة على رأسها، وتعجبت من نحافتها، فلم تكن كذلك، وما هو سر تلك العصبة الحمراء على رأسها، لم أستطع النظر طويلًا في وجهه الشاب، فقد رسم على وجهه كل ما عاني في حياته العشرينية هناك على وجهه، قد كتب كل شيء، أغلقت عيني التي امتلأت بدموع الأسف وأنا أتصل بالتليفون لإخبارهم أني تعرفت على المرأة والشاب، جلست صامتة أنتظر أن يأتي أحد من المركز الإسلامي فسيأتي الشيخ ومعه إحدى النساء للصلاة عليهما على الطريقة الإسلامية، وسيتم تقديم طلب لدفنهما في المقابر القليلة

التي تخصصها البلدية للعرب المسلمين، وإن كنت من أصحاب الحظ سيهتم أحد لأمرك ويتم وضع جسدك هنا، أما إذا لم يتعرف عليك أحد فلا أدري.

ذهبت إلى ماكينة القهوة وأخذت كوبًا أحتسيه بينما أنتظر وقد أنهكني التفكير فيما حدث لهما، مرت الدقائق بطيئة ثقيلة تعاند لهفتها وهي تنظر بقلق من نافذة الباص المغطاة ببخار الماء الذي يحاول الهروب من النافذة المغلقة فلا يستطيع، فكان يدخل مرغمًا من صدر إلى آخر ليحمل من الألم ما لا طاقة لبشر به ويخرج ليدخل صدرًا آخرًا فينثر عدوى الصمت الثقيل بين الركاب، لا أحد يتكلم، تنهدت بعمق وهي تتذكر ألم الفقد! من منا لم يذق مرار الفقد؟ خرجت من بين شفتيها تنهيدة عميقة، نظراتها الحائرة لا تستقر على مكان، لم تكن تعنيها الأماكن فهي لا تعرف أحدًا في هذه المدينة، وليس لديها أحد؛ هي غريبة وإن أتت منذ سنوات طويلة؛ هي غريبة وإن منحتها السلطات ورقة جنسية أوروبية؛ هي غريبة مات زوجها فبذلت ما في وسعها لتحمل جثمانه إلى بلده؛ أنفقت الكثير من المال وما بقي لديها من القليل لم يكفها لعدة أشهر، بدأت تصارع الحياة لتحصل على المال، أصر ابنها على ترك الدراسة ليعمل، تغيرت الحياة فجأة وكأنها تستدير بوجهها وتغير هو معها! انتبهت على صوت السائق يخبرها أنه وصل إلى آخر الخط.

نزلت مسرعه تلهث كالغريق حال خروجه من الماء، سارت قليلًا تبحث عن أي شخص يدلها على العنوان، ما زالت الساعة السابعة صباحًا وهو يوم أحد من النادر جدًا أن يكون أحد في الشارع

في هذا الوقت يوم العطلة الأسبوعية دخلت إلى البار تسأل، بدأ عامل البار يرشدها إلى المكان فهمت قليلًا من لهجته الفيورينتينية الغريبة، ذهبت حيث أشار لها، أخذت تمشي وهي تنظر كل فترة إلى المستشفي المرسوم على الورقة التي تحملها، وكالعادة في هذه البلاد تتحول المباني الأثرية أو القصور الكبيرة خارج المدينة إلى مستشفى حيث يختبئ بين الأشجار في هدوء لافت بعيدًا عن ضجيج المدينة، كانت تريد أن تصل إليه فلم تهتم لآلامها، وخاصة أنها قضت وقتًا طويلًا في المرض وما زالت منهكة القوى، وكم صرخت تنادي في وحدتها ولم يسمعها إلا الله طرقت رأسها في الحائط لقد كان أمامها، كانت تمر عليه في رحلة البحث عنه، كان أمامها ولم تعرفه؛ ملقى على جانب من الرصيف الطويل تحت الكوبري المؤدي إلى محطة القطار غارق تحت الأغطية الثقيلة، لم تعرف ملابسه المهلهلة، لم تعرف لحيته الطويلة فهي لم ترها أبدًا، لم تعرف تلك الرائحة التي تختلط مع دخان السيارات وسجائر المارة والكحول الرخيص الثمن، ورائحة البول في كل مكان التهمت النحافة وسامته، ودمر الجوع جسده كان تائهًا مثل الكثيرين من حوله، وكانت تتجنب المرور بجانبهم كالكثير من الناس الذين ينظرون اليهم كبقايا بشر، وهم في الحقيقة الوجه الآخر للمجتمع وكلما كثر الفقراء والمهملين في مجتمع ما فلنعرف أن شره سبق خيره، قطع نقدية صغيرة يلقيها لهم البعض من الرحماء تسد القليل من الجوع الذي يفتك بهم، لم تعرفه، طرقت رأسها في الحائط كانت تستجدي الموت لكنه أبى أن يستجيب لها، ولم يكن أرحم بها من رحمة ابنها بها، لم تعرف ابنها فلذة كبدها، كم بكت لغيابه! كم استرحمته في التليفون ليعود إلى البيت، فكان يرفض، ربما كان يخشى أن ترى وجهه

المهزوم، وروحه الكسيرة الضعيفة كنبتة بلا جذور، لولا أن سمعت جارتها صرخاتها واتصلت بالإسعاف الذي حضر فورًا وبصعوبة فتحوا الباب كانت غارقة في الذكريات، تذكرت ضحكات الأطفال يوم عيد ميلاده وهم يطرقون الباب واحدًا بعد الآخر، سمعت صوت والده وهو يحضر له الكيك المفضلة بالشيكولاتة، سمعت ضحكات الأطفال (البامبيني) وهم يتقاذفون البالونات الملونة، ويغنون له عيد ميلاد سعيد لم تسمع صوت المسعف، وهو يخبرها أن عليها أن ترتاح؛ فقد فقدت الكثير من الدماء وأن عليها أن تنادي أحدًا ليكون معها فربما أصابتها الحمى، وأعطاها أقراصًا صغيرة وانصرف، كانت ما زالت تسمع غناء الأطفال، وتذكرت تلك السلسلة الفضية التي وضعتها في عنقه، عادت إلى شرودها وهي تلقي الدواء في سلة المهملات.

ذهبت بصعوبة إلى الدولاب الصغير، وأخرجت حقيبة ملونة ظلت تتأملها، كانت تحوي ملابس رضيع، حملتها بين كفيها تحتضنها إلى أن نامت مكانها.

في الصباح غطت رأسها بإيشارب كبير لتخفي الضمادة المتسخة على رأسها، فما زالت جراحها تنزف، وجسدها يتألم وخاصة قلبها لقد كان يعتصر تحت قبضات الألم، تذكرت ذلك التليفون المشؤوم الذي تلقته أمس؛ كان أحد الأشخاص يخبرها أنهم وجدوا شابًا في محطة القطار فاقد الوعي، وأنه بعد أن أفاق طلب منهم الاتصال بأمه، وأنه كان موجودًا هناك منذ عدة أشهر حتى تم نقله إلى المشفى، لم تتمالك نفسها؛ إذن هو الشاب العجوز الذي كانت تلاحقها نظراته في الطريق؛ إذن هو لم ينكره قلبها إنما أنكره عقلها، أخذت تطرق رأسها

في الحائط كأنما تريد القضاء على ذلك العقل الذي أنكر قطعة منها، أخذت كيس الحلوى الذي يعشقه في حقيبتها، وأغلقت الباب برفق على وحدتها الساكنة فيه، وفي الطريق رمقت بنظرة حزينة مدرسته التي شهدت طفولته، وأتاها صوته يركض في الفناء الواسع، كبر وكبر كل شيء، كبرت الهوة بينهما إلى أن أصبحت عميقة قاتلة؛ خاصة بعد موت أبيه، كان يرفض كل شيء، بلا هوية يتسلق بعيدًا عن عالمه وجذوره؛ أصبح كالنبات المريض بلا جذور عميقة، وتحول حنانها عليه إلى قسوة ورفض؛ أغراه كل يوم بالذهاب بعيدًا عنها، كانت قد اقتربت من المستشفى، ورأت الباب في الصورة بيدها كان هو، طرقت الجرس، فتح لها الحارس الباب، وأشار لها إلى مكان الدخول، هناك سألت أول شخص وجدته فاصطحبها إلى الغرفة، وجدت الطبيب وكان بجانب السرير في اللوحة أمامه، خاطبها قائلًا:

"سيدتي عليك أن تتماسكي، وأن تعرفي أنه مريض جدًا، فجسده المنهك يصارع المخدر والكحول، وقد أعطيناه الكثير من المهدئات حتى يتمكن من النوم، أعرف أن قلبك يصلي من أجل طفلك".

انصرف الطبيب ولم يلحظ الضمادة المغطاة على رأسها وقد تحولت إلى اللون الأحمر، فلربما ظن أنها عصبة حمراء على شعرها، وقد غطته بإيشارب كبير.

حاولت جاهدة أن تتماسك وأن تقنع نفسها أن طفلها نائم في سريره، طفلها الغريب كان شديد الذكاء، كان يغرق في التفكير كلما سأله أحد من أي البلاد أنت؟ كان أحيانًا يجيب هذه وأحيانًا الأخرى، وفي بعض المرات كان يدمج البلدان معًا، اقتربت إلى الشاب النحيف

الغارق في الفراش هو طفلها؛ الوجه الباسم والملامح العربية، سقط قلبها المحترق على الأرض يختبئ من النيران التي تحرقها بينما جسدها يذوب ويتلاشى، وضعت يدها على وجهه تتحسسه بينما تنتفض روحها وكأنها شجرة تقتلع من جذورها، بدأت تقرأ آيات القرآن وهي تتعثر، تخونها ذاكرتها فتذكر آيات بينما تنسى الأخرى، انحدرت دمعة من عينه فبللت يدها ما زال يرتدي السلسلة الفضية التي أهدتها له في عيد ميلاده، كانت تريد أن تحتضنه؛ اقتربت أكثر وألقت بجسدها الميت بجانبه وكأنه شعر بها فقبض على يدها، نامت ولا تدري كم من الوقت مر، في الصباح أتت الممرضة لتعطيه الدواء وعادت سريعًا لتهمس بشيء إلى زميلتها بحزن شديد، هناك سيدة غارقة في دمائها في غرفة الشاب المغربي الذي لا يتنفس هو الآخر أهي والدته؟ أتى مدير المستشفي ومعه البعض، طلب نقل الجثث إلى غرفة الموتى، والاتصال بالجالية العربية فلم تكن إلا مجرد أرقام تضاف إلى أرقام من جاءوا في لقاء مع الموت على الشواطئ، أو قرابين تقودها أحلام الهجرة إلى بحر الحياة الهائج.

❊ ❊ ❊

٨. لقاء ياسمين مع زوجها على الجسر القديم

بعدما استجاب لرغبة أسرته في الزواج ممن اختاروها له لم يحتمل العيش في مكانه، رحل إلى دولة عربية ليعمل هناك مع الزوجة الجديدة، كان كل شيء كالمعتاد هو يذهب إلى العمل في الصباح ويعود في الخامسة وكانت الحياة تمر لم يعرف كيف؟ ولم يحاول أن يعرف الحياة بلا حب هي حياة بطعم الموت! كان يعيش سجينًا في حبه القديم، لم تكن زوجته تعرف شيئًا عن ماضيه كان قليل الحديث معها وكان قلبها يعرف أن لهذا الصمت القارس مفاتيح وأبواب مغلقة وإن لم يحكِ لها أبدًا مهما حاولت حتى استسلمت لقدرها وأصبح الصمت يجمعهما؛ بل كانت عينيه تتحدث بلا شيء، تمر الحياة يتجمد كل شيء حتى أقل الأشياء، تحية الصباح تلاشت شيئًا فشيئًا إلى أن فاجأته هي يومًا ما عن رغبتها في العودة لبلدها، وأنها لم تعد تطيق هذا الصمت المظلم، فهي لم تكن سعيدة ولا تريد أن يشعر أولادها بهذه المسافات البعيدة بينهما؛ لذلك فقد طلبت منه الانفصال في هدوء؛ كانت على قدر من الوعي الفكري؛ أدركت خطأ اختيار الأسرة للزوج أو الزوجة، وأنه إن لم يكن نابعًا من القلب فلا أمل في إصلاح الخطأ، لم يحاول هو أن يعرفها كامرأة كزوجة، لم تطالبه بشيء، أبت كرامته المزعومة أن يناقشها في طلبها بل قال لها فورًا: "أنت تريدين الانفصال؟".

أجابت: "هو أفضل حل من أجل الأولاد كي لا يشعروا بما بيننا".

وقد كان؛ عادت هي بأولادها حزينة منتصرة، فقد فضلت أن تعيش حرة على أن تعيش جسدًا على أطلال امرأة أخرى، أن تعيش مطلقة على أن تعيش امرأة مقهورة.

عاد هو يلهث إلى ذكرياته، أنهى تعاقده فورًا، وعاد إلى بلده جمع أشياءه وذكرياته وكأنه لم يمض من العمر شيء، لا يفكر إلا في ياسمين – تراتيل السلام٢ – على الرغم من أنه علم بأنها أصبحت أم لطفلة وكاد يصيبه اليأس لولا أن أرسل إليه أحد أصدقائه القدامى خبر انفصالها عن زوجها الإيطالي، وأنها الآن تعمل محامية مع صديقتها صوفيا.

وضع كل شيء، بعض الصور القديمة، تذكر القميص الأزرق الذي أهدته له في عيد ميلاده، ذهب إلى خان الخليلي ليشتري لها قوارير الزجاج الملونة المليئة بالياسمين والفل الذي يصنع يدويًا يا لسعادته، كان يفكر وينتقي ما سيقوله لها، هل سيحدثها عن ذلك الحلم الذي أصبح يهاجمه بقوة؟ هل يحكي لها أنها فتاة أحلامه ذات القميص الأبيض التي تزوره كل يوم؟ هل سيخبرها عن زواجه التعيس؛ عن زوجته السابقة، وأن حياته قد تجمدت بعد عام من الزواج وأن الجسد المتجمد بجواره كانت ضحية حبهما؟ كان يتخيل ردود وهمية صوتها ضحكاتها وهما يلهوان معًا في الجامعة في الحديقة التي أسمياها حديقة الحمائم الاثني عشر، والتي شهدت حبهما، أتاه آخر ما سمع منها وهي تتوسل إليه أن يقاوم عائلته، افعل شيئًا، هل تريدني أم تريد الزوجة التي اختارتها لك عائلتك؟ انتفض من مكانه هل ما زالت تذكر ردي الصامت القاسي؟ كانت الذكريات تعصف في رأسه؛ أول شيء فعله عندما نزل من الطائرة وقد استقبله صديقه بعد سنوات أن سأله عنها.

* * *

٩. ياسمين

أغلقت ياسمين التليفون بعصبية شديدة وهي تقول باللغة الإيطالية ما لهذا التليفون؟ لقد جن؛ أكاد أن أفقد أعصابي إنه يرن لمرات عديدة ولا يرد أحد!

نبهتها صوفيا ألا تجيب لأن الأمور كثيرًا متوترة، وقد تلقت تهديدات من بعض المتشددين بعد المقال، والدعوة التي أقامتها على والد الطفلة أمل – قصة القتل المشروع – التي هرب بها أبواها وقد ارتكبوا جريمتهم الشنعاء، لم تتملك ياسمين نفسها من الغضب؛ أخذت تسيل الغضب على من يتصل بها ولا يرد إلى أن أتاها صوته.

لم تعرفه في بادئ الأمر كان صوته مختنقًا؛ يكاد يبكي، وقفت هي عن الصراخ، إنه صوت بكاء: "من أنت؟" سألت.

أتاها الصوت المختنق: "أحبك".

هل تهذي؟ كان الصوت باللغة العربية، لم تغلق التليفون بل جمدت مكانها وهي تسمع كلمة: "أشتاق".

شق صدرها إلى نصفين ليتفجر منه الحب الساكن في الأعماق: "وحشتيني، أشتاق أشتاق إلى جنة الحمائم الاثني عشر".

أغلقت ياسمين التليفون وقد انتفضت وحملتها سحب الذكرى بعيدًا.

في اليوم التالي كان هو يقف على النهر في انتظارها، ها هو الجسر القديم كل شيء كما تركاه، هنا كانا يقفزان معًا، هنا كانت الموسيقي في كل مكان، وما زال صوت غناء النهر كما هو، وها هي تأتي من بعيد وتحلق روحه حولها، مدت يدها لتسلم عليه، لم تعرفه؛ لقد تغير وجهه وشكله إلى رجل، أصبح لديه شارب وسنوات رسمت العمر على وجهه، كان صامتًا يلاحقها بنظرات حائرة تكاد تحتضنها بتوسلات غامضة، بدأت هي الكلام:

"لا أتحدث كثيرًا اللغة العربية، لا أعرف إن كنت سأفهمك أم لا".

أجابها بسرعة: "يمكنك التحدث بالإيطالية؛ فأنا لم أنس شيئًا".

"هل تريدين الجيلاتو بالشيكولاتة الذي تحبينه؟".

أجابت هي: "سي" نعم.

بدأا يسيران ناحية محل الجيلاتي الذي رافق حبهما القديم، لم يتحدثا كثيرًا بل ظلا يتنقلان من مكان إلى آخر في قلب المدينة الساحرة؛ الدومو، الجسر القديم، حديقة الحمائم، ساحة بياتزا سنيوريا، لم يتحدثا بل سارا معًا تحت الأمطار إلى أن اشتدت غزارتها، فقررت العودة إلى بيتها.

صاحبها هو إلى هناك، ودعته على الباب وانصرفت بينما هو في عالم من السحر لا يعرف من يكون؟ وأين يكون؟ تفجرت ينابيع الحب القديم الجديد لتذيب الجليد النائم في قلبه؛ تأمره بالانصهار، وحديث الحب القادم من أعماقه يصرخ لِمَ الانتظار؟ أيها العشق الساكن بأعماقي أراك من بعيد عد إليَّ يا وطني! هل ستسامحني؟ من أحببتها كانت

ياسمين هي الأخرى في عالم بعيد تتذكر كل شيء، ذهبت إلى دولابها وأخرجت حقيبة صغيرة كان فيها كل ما تملك؛ صور، خطابات، زهور جافة، قميص أزرق، ثوب مطرز، عطر الياسمين، كان قلبها يحترق، وجراحها تنزف من جديد، ماذا ستفعل؟ لم تفكر أبدًا في يوم عودته، هل ستقبل العودة إليه؟ أتاها صوت من داخلها إنه ربيع كاذب قصير، مر سريعًا بعد أن اعتصر زهورها، بعد أن استنشق عبيرها.

أمسكت آخر رسالة كانت تود إرسالها إليه ولم ترسلها أبدًا، كان بالرسالة "يا أكذب ربيع مر حملته أحلام الحب في رسائل جوفاء ظلك لم يعد يعنيني".

كان أصدقاؤهم يسمونه بظل ياسمين، كانت تمزح معه أنت ظلي، أمسكت بالتليفون وكتبت عدة كلمات أرسلتها إليه.

وفي الصباح كانت تنتظر صوفيا في التاكسي لرحلتهما الجديدة.

انتفض هو من الفرح، لم تغمض عيونه طوال الليل؛ يراوده الأمل، يبني القصور والأحلام، أمسك التليفون ليقرأ رسالتها التي أيقظته من عالم السحر إلى عالم الحقيقة، كتبت بلغة عربية ردئية: "قبلة الحياة لن تجدي مع قلب مكسور أو مات، في الموت صباح جديد بلا آلام جديدة آتية أو آلام قديمة باقية. جاسمين".

بينما هو يضرب الأبواب ويحطم كل ما أمامه كانت هي على أجنحة الطائرة لتنقلها إلى رحلة جديدة.

* * *

١٠. الشيخ

بينما يصفق بيده لتحضر له زوجته كوب الشاي الذي يحبه ساخنًا جدًا كان الأطفال يصيحون ويركضون هنا وهناك في ساحة البيت الواسعة، أما هو فلا يكاد يشعر بهم، فقد كان عقله في مكان بعيد جدًا أبعد من حدود البيت الواسع وغرفة المعيشة الممتلئة بالفوضى والبهجة والبلدة الصغيرة الدافئة التي يكاد سكانها وهم في بيوتهم يشعرون برائحة أي غريب يقترب من القرية، لم يشعر بزوجته وهي تضع أمامه الكوب، ولم ينتبه لتحذيراتها أن الشاي ساخن وأن الأطفال قد يسكبونه، كانت منهمكة في تنظيف المطبخ وترتيب البيت وإعادته إلى حاله بعد يوم حافل من لعب الأطفال.

هو أب عادي ككل الآباء، وهي أم عادية ككل النساء، لكنه كان يتحدث عن نفسه له أفضلية أخرى ومميزات كثيرة، فهو سافر خارج القرية، تعلم في الأزهر، هو رجل دين يعطي لنفسه أفضلية تفوق كل رجال الدين في البلدة الصغيرة، رغم صغر سنه فالجميع يعرف أن الأزهر هو قاعة العلوم الدينية وحارس الوسطية السنية، كان شاردًا طار عقله إلى هناك إلى المدينة الجميلة التي أخبره أحد معارفه أنه سيرسل إليها حتى يلقي دروس الدين الإسلامي طوال شهر رمضان، فقد تم اختياره ضمن البعثات المرسلة من قِبل الأزهر الشريف إلى جميع

أنحاء العالم، وتذكر كم الإلحاح والهدايا التي أنفقها والعزائم التي صنعها، عرضت عليه زوجته أن يبيع مصاغها حتى يستطيع أن ينفق على صنعها، وفي النهاية استطاع أن يحصل على ما يريد.

مشتت الذهن يفكر في كل شيء؛ الطائرة، جواز السفر الذي بدأ منذ فترة رحلة الحصول عليه، الملابس الثقيلة وقد أخبروه أن الطقس قارس في هذه البلاد، وان الجلباب لن يكفي ليجلب له الدفء، يرسم صور الأوروبيين، حقيبة المال التي سيعود بها، والهدايا، النساء، الساحات، كل شيء حتي الجليد الذي لم يره في حياته، وكأنه بدأ يرتعد من أثر الجليد، إلا أنه لم ينتبه أن طفله ألقى الكرة فوق كوب الشاي الساخن الذي انسكب وتناثر فيصيب شيء منه قدمه فارتعد من السخونة.

قام وهو متجهم الوجه يسب الطفل بألفاظ غير مفهومة، ويصرخ على زوجته حتى تنظف المكان، فأتت هي بدورها تحمل فوطة صغيرة لتنظف في صمت تجنبًا لأي جدال قد يزيد الموقف اشتعالًا

حان وقت الرحيل، لم ينم طوال الليل، أعدت له زوجته الحقيبة وأعد هو قائمة طويلة من التوصيات وقائمة من الأمنيات العريضة التي مناها بها، وها قد حان وقت تحقيق الأمنيات فهم لم يكونوا في سن متقدمة بل كانا شابين هو في عمر ٣٢ عام وهي ٢٤، وعلى الرغم من أنها تبدو غير ذلك بسبب الإنهاك، وكثرة العمل في المنزل إلى جانب الأطفال فهي تزوجت من ٦ سنوات فقط، لم تكن بحاجة إطلاقًا إلى توصيته، فقد كان هو رجل الدين الوقور وحضرة الشيخ الجليل، وكالعادة أتت العائلة كبيرها وصغيرها لتودعه قبل السفر، وتتمنى له

رحلة مباركة، كانت الرحلة من جنوب مصر إلى مطار القاهرة شاقة جدًا، ذهب معه والده وأخوه وبعد أن أوصاهم بزوجته وأطفاله انطلق إلى مصيره وسط دعوات والده.

صعد إلى الطائرة وصعدت معه أمانيه تركض أمامه، وكلما حلقت الطائرة إلى أعلى حلقت معها أحلامه وارتفعت، ولولا سقف الطائرة لهام يسابق السحاب في الوصول إلى هدفه، كان قد نسي كل شيء عن نفسه من أين أتي؟ نسي دعوات والده ودموع أخيه، نسي الحزن الممزوج بالأمل والخوف من المجهول في عيون زوجته، نسي بكاء أطفاله، كل شيء تبخر وأُسدل عليه ستار أمام باب النزول من الطائرة، كان يجبر عقله ولسانه على استعمال بعض الكلمات الإنجليزية لكن لسانه رفض بشدة، وكلما حاول أصابه الفشل والإحباط من نظرات الأشخاص حوله، فما كان عليه إلا أن يستعمل تذكرة الطائرة ليريهم أنه يريد أن يذهب إلى بلد ما فكانوا يوجهونه يمينًا أو يسارًا.

وبصعوبة وصل إلى الصالة التي سيركب منها الطائرة إلى فلورنس حيث سيكون أحد الأشخاص في استقباله من قبل الجالية العربية لينقله مباشرة إلى المركز الإسلامي، هو شاب مثل غالبية الشباب على الطائرة، بل هو أوفر منهم حظًا، فباقي الشباب على الطائرة لو وجدنا عندهم نفس الأحلام لكنها كانت تمتزج بخوف ومجهول، فهو أتى ويعرف أين يذهب وأين ينام وأين يعمل، بينما من كان يجلس وراءه، سيهبط إلى فضاء الكون الذي سيطبق ظلمات أسواره عليه بعد قليل فلا يعرف أين يذهب؟ أو أين ينام؟ أو متى؟ أو ماذا سيأكل؟ بل يعلم جيدًا أن لسانه قد بدأ رحلة الصمت الطويل والصوم عن

الكلمات، وربما تمضي أيام أو ساعات قبل أن يجد من يتحدث معه بالعربية، أو ربما تمضي شهور وهو بجوار الرصيف أو تحت كوبري المشاة دون أن ينتبه إليه هو وأمثاله أحد، الشيخ الحالم محظوظ، فهل ستقع الأحلام على أرض الواقع القاسية لتنبت ثمارها؟

وجد شابًا تبدو عليه ملامح المغرب العربي في انتظاره بلافتة، وحيث إن ملابسه مميزة فهي ملابس الأزهر العتيقة التي تحمل عبق الدين وأصالة الشرق، حياه الشاب بحرارة تليق بعالم جليل، واصطحبه إلى المكان المخصص له حيث سيقضي القليل وغدًا سيصحبه إلى المركز الإسلامي حتى يبدأ في إمامة الصلاة وأعمال الوعظ والدعوة لأبناء الجالية، فلم يتبق غير عدة أيام ويبدأ الشهر الكريم؛ شهر رمضان المبارك المقدس عند الأمة الإسلامية.

نام وهو يسبح في عالم من النشوة والجمال الذي ذبح عينيه منذ أن استقل الطائرة، فقد تزينت الدنيا من حوله بعناقيد من نور رصت بعناية فائقة، فقد كان شهر ديسمبر، وقريبًا جدًا تبدأ احتفالات الكريسماس التي تضفي السحر والخيال، وتتراقص أشجار الكريسماس (النتالي) بالإيطالية تحت ورود الجليد المتساقطة في كل مكان تعزف أغنيات النتالي التي لا غنى عنها، حقًا هو عالم وهمي ساحر، وخاصة لمن لم يعتد عليه، الجميع في الشوارع لشراء الهدايا وتبادل التهاني حتى بداية رأس السنة الجديدة، وكيف يشارك الجميع في الاحتفال المسيحي وغير المسيحي من ديانات أخرى في تعاون وتكافل واضح، فعلى الرغم أن في الأسرة الواحدة يختلف الجميع في الفكر والسياسة والدين، إلا أن الجميع يحترم ويقدس هيبة

الاحتفالات الاجتماعية والدينية كرمز للتحاب والتسامح، وكيف أنه كان ينتفض من مكانه على صوت الألعاب النارية التي تزداد رهبة كلما اقترب مولد السنة الجديدة، فلم يسبق له رؤية احتفالات من هذا النوع، الجميع في الشارع للرقص والغناء، بينما كان المركز الإسلامي يضج باحتفالات أخر وهو شهر رمضان المبارك، كانت صلوات التراويح تعطر السماء ليلًا وسط الدعوات والابتهالات إلى الله أن يكون الخير والبركة على الجميع، إلى جانب الموائد الرائعة التي تقدم من القادرين لعمل إفطار جماعي فتدب الحركة في المسجد، ويعمل الشباب هنا وهناك، ويتم طهو الطعام في أوانٍ كبيرة جدًا يتم إحضارها لهذا الغرض، ويأتي الفقراء من جميع أرجاء المدينة المسلم وغير المسلم وأغلبهم من الشباب اللاجئين والعاطلين، ومن يدفعهم الفضول من الجنسيات الأخرى للتعرف على المجتمع الإسلامي والطقوس الدينية، يبحث الجميع عن أمل في جنبات المدينة في مشهد تهتز له القلوب رضًا وحبًا.

يبذل كل ما في وسعه، ويختار أجمل الكلمات ويضع قدرته اللغوية والدينية في دروسه وخطبه؛ كان يريد حياة جديدة، ويعرف أن عليه أن يرحل بعد ثلاثة أشهر، وهو ما كان يطبق صدره ويخنق أحلامه، فمنذ اليوم الأول بدأ يتساءل هنا وهناك، ويراقب كل شيء، ويسأل عن كل شيء، ويبحث عن وسيلة لعمل أوراق إقامة قانونية، فهو لم يكن ينوي أبدًا الرحيل، ومرت الأيام ولا جديد، فهنا وفي هذا المكان تجمعت آلاف المشكلات والأحلام صريعة تنتظر حلًا من الله، وترتفع الأيادي إلى الله ترجو فرجًا.

اقترح عليه البعض أنه لا حل إلا الزواج، فرحب بالفكرة فورًا وبدأ يختلس النظر هنا وهناك بحثًا عن العروس، بل اقترح عمل دروس نسائية في غرفة النساء حتى يتسنى له البحث، فكان يراقب ويسأل مَن متزوجة ومن لا؟ وكان النساء خليطًا من جميع أرجاء العالم العربي والأفريقي وغيرها، كانوا يستمعون إليه صامتين تنبثق آلام الغربة من عيونهم على أجسادهم التي أنهكها العمل اليدوي، فها هي التي أتت بمفردها تعمل حتى ترسل القليل الذي تكسبه إلى أولادها في الصومال، وها هي من طلقها زوجها فتصارع الحياة ولا تستطيع أن تعود إلى بلدها لأنها لاجئة حرب.

يلتقي الجميع هنا في غرفة التجرد من الاسم والعرق لجمع الأحزان وإلقائها على فراش الصلاة، فتبتسم العيون المبللة بالدموع وتتعانق القلوب، وقع بصره عليها وها قد وجد ضالته.

استيقظت أم أولاده كعادتها في الصباح بكامل النشاط لتعد الأطفال للذهاب إلى المدرسة الابتدائية القريبة، ثم تبدأ في أعمالها المنزلية المعروفة بعد أن تحضر ما يلزمها لإعداد الطعام لهم، كانت طيبة جميلة محبوبة من الجميع، وتحسدها كل نساء القرية فهي زوجه الشيخ والآن هو في الخارج، وكانت تستمع لأسئلتهم السخيفة لأطفالها:

"بابا حيجيب لك إيه من بلاد بره؟ وصحيح التلج مالي الشوارع هناك؟ وبابا حياخدكم امتى؟".

كان هذا اليوم مختلف فقد أتى والده إليها مبكرًا على غير عادته، فهو غالبًا ما يحضر بعد صلاة العصر ليجلس إلى الأطفال ويلاعبهم، ويساعد الطفل الأصغر في حفظ القرآن الكريم فهو كان في الكُتَّاب لم يذهب بعدُ إلى المدرسة.

مرت الدقائق ثقيلة حائرة وكان هناك حائل يجسم على لسان الرجل فلا يقوى على الحديث، كانت عيناه منخفضتين كسيرتين، وبينما هي تعد له كوب الشاي، لم يتناوله بصدر رحب كالعادة بل وضعه جانبًا، ارتابها الشك وهي تتساءل:

"ماذا حدث يا أبي؟ هل حدث شيء للشيخ؟".

"لا يا بنتي" أخيرًا أجاب: "اسمعي يا أم محمد، إن ولدي أرسل لي أوراق طلاقك، وقد أحضرتها لك في هذا المظروف لا أعرف كيف؟ ولِمَ؟ الله يصبرك يا بنتي وأنا تحت أمرك في كل طلبات أحفادي ولك حرية الاختيار".

انصرف بينما هي الأخرى قد انصرفت بعيدًا، ولما أفاقت وجدت أختها إلى جوارها وأطفالها بنظرات حائرة، فكانت تحمل طفلًا بين جنباتها؛ حامل مرة أخرى.

مر زمن منذ أن رحل الشيخ، مر دون أن يتذكر مرة واحدة أولاده أو أن يكلف نفسه مكالمة تليفونية، أو يرسل إليهم أي أموال، كانت تأخذ راتبه الشهري من الأوقاف إلى أن تم قطعه بسبب انقطاع الشيخ عن العمل، ذهبت بصحبة والده إلى شيخ المعهد الديني في القرية، واستطاعت أن تحصل على وظيفة سكرتيرة، الجميع في القرية يحاول أن يرضيها بعد ما أصابها إلى أن تزوجها رجل ثري من أقاربها؛ ليعينها على الحياة بعد وفاة زوجته.

استيقظ هو مبكرًا، ذهب برفقة شاب عربي ليشتري ملابس دافئة تتناسب مع الطقس البارد جدًا، وكان يضع ملابس الدين في غرفة خاصة بالمسجد ليستعملها وقت الصلاة وكالغالبية من المسلمين، كان يتذكر

أنه مسلم فقط عندما تدق أجراس الكنيسة، فكان يسرع ليطمئن على جلبابه، كانت سيدة تحمل الجنسية الإيطالية قد وافقت على الزواج منه مقابل ٦ آلاف يورو هي كل ما جمع من مال طول فترة إقامته قبل أن تهرب ولم تبق له شيئًا، فمن المعروف أن القانون الإيطالي لا يقبل التعدد، لا يستطيع الرجل الزواج من اثنتين لذلك كان عليه أن يقدم إقرارًا بزوجة واحدة فقط، وهذا سر طلاقه لأم أولاده المصرية، قرر أن يلقي أم أولاده إلى غيابات النسيان إلى سلة النفايات وهو يهمس إلى نفسه: "سنة أو اتنين وأرجعها تاني هي حتروح فين يعني!".

كعادة نساء الشرق؛ المطلقة تظل مطلقة في نظر المجتمع، وتحوم حولها الشكوك والشبهات فلا يقترب منها أحد وكذلك الأرملة، وعليها أن تتعايش مع أسوار الشك والظنون من حولها، تذكرت أن بعض القبائل تلقي بالمرأة التي يموت زوجها في قبره للموت حية معه، أما في الريف فكان الموت أهون كثيرًا من الطلاق، هذا هو إرث العُرف الملوث بطين الجهل.

بينما الزوجة الجديدة تقنعه أنها تقوم بعمل أوراق عمل له، ظلت معه لفترة من الزمن، ثم هربت، فقد كانت سكيرة وتبحث عن المال ولم يكن يعرف أنها تقتات من ذلك، وهناك الكثيرون ممن خدعوا قبله، وذلك لأنها تصنع أوراق مزورة، عمل في بار بعد أن ترك المسجد فالمرتب الذي يحصل عليه منهم زهيد؛ بعد أن فرت الزوجة بلا رجعة إلى حيث لا يعرف وقد أخذت كل ما يملك.

استمر في عمله إلى أن طرده صاحب البار، فشل في أن يجد عملًا آخرًا، ظل يصارع خيبته ولا يدري أن بين الليل والنهار ساعات

قليلة، كانت لديه قدرة كبيرة على إقناع ضميره بالتعايش، ولِمَ لا؟ فهو يجاهد من أجل المال للعيش.

تعرف على فتاة أخرى لم تتحمله طويلًا، فقد كان لديها بيت ورثته عن عائلتها فانتقل إلى العيش معها إلى ان سأمته، وبدأت تشعر بالقلق منه فألقت بملابسه خارج الباب في أمر قاطع أن انتهي كل شيء وعليك الرحيل.

اتصل به أخوه يخبره أن والده قد غادر الحياة، وأنه كان يتمني رؤيته ولسانه ينطق باسمه طوال فترة مرضه.

بدأ يعاوده التفكير فكر في شيء ولو أن ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، ما عادت له ذكرى أم أطفاله بابتسامتها النقية، تذكر صرخات أطفاله في غرفة المعيشة الواسعة، بل شعر بفضائها يراود روحه السجينة بين حوائط الغربة اللاهثة وراء الوهم، قرر الهرب من جديد إلى فضاء قريته، جمع له أهل الخير ثمن تذكرة العودة ودخل باب الطائرة، وقد نسي كل شيء، وأصر أن يأخذ معه ملابس رجل الدين ليرتديها في بلده حتى يعود إليه وقاره لكن هل حقًا سيعود؟

تذكر أحلامه التي أتى على أجنحتها، ولم تختلف الطائرة كثيرًا، فكانت تعج بالأحلام، كيف هم أولاده هل سيعرفونه؟ الآن زوجته قد أصبحت أجمل وازدادت نضجًا وجمالًا، سيعود إلى عمله وستقدمه جميع مساجد القرية فهو رجل الدين، نزل من باب الطائرة لم ينتظر أحدًا، فقد أخبر أخاه بعودته إلا أنه لم يجبه، ركض إلى بيته وقلبه يركض معه، ما هي إلا لحظات وستكون زوجته وأطفاله بين أحضانه كأنه لم يحدث شيء، دق الباب مرة أخرى فتح له الباب رجل لا يعرفه، سأله:

"من أنت؟".

فأجاب: "بل من أنت؟".

أتت امرأة رائعة الجمال من الداخل، أخذت تنظر طويلًا في وجهه، وألقى الأولاد نظرة على هذا الرجل الغامض بالباب وانسحبوا إلى الداخل؛ إلا أن الأم تداركت الموقف وهي تقول:

"لا بد وأنه أخطأ العنوان" أغلقت الباب بهدوء وعادت إلى جنتها.

* * *

١١. عدل جاكشا[١]

يوم أحد، الطقس بارد جدًا، احتمت صوفيا في مظلتها إلى أن دخلت صالة النساء، وضعت المظلة الغارقة بمياه الأمطار في المكان المخصص، رأت عددًا لا بأس به من النساء من كل الأجناس، في الجانب تجلس سيدة غريبة لم تحضر من قبل كانت تقرأ في مصحف، وبعد قليل أغلقته ووضعته على الرف المخصص، أخرجت منديلًا من القماش كبير الحجم بلون رصاصي، كان المنديل قديمًا جدًا متهالكًا.

وضعت وجهها داخل المنديل، وأخذت تفرك وجهها دلكت كل ركن فيه، ثم وضعته جانبها، أبدت ابتسامة عريضة وأخذت تأكل الحلوى والتمر مع النساء.

عاد كل منا إلى منزله، في الصباح خرجت أتنزه في جولة صباحية مررت بجانب المركز الإسلامي من جديد، فهو في طريقي دائمًا رأيتها أمام الباب تحاول الطرق على الباب لكن لا أحد يجيب، "بون جورنو" حييتها، أجابت بصوت خافت: "بون جورنو".

سألتني بالإيطالية: "متي يفتح المركز من فضلك؟".

أجبت: "إنهم يفتحون في الفجر، ثم يغلقون في الصباح، ويعود

---

(١) جاكشا أو جاككا لتعرف عنها اقرأ عدالة جاككا.

السيد ليفتح بعد ذلك لصلاة الظهر، لكن إذا أحببت يمكني أن أتصل به، هل حدث شيء؟".

"لقد نسيت شيئًا ثمينًا جدًا أمس، أثمن ما أملك".

"حسنًا من الأفضل أن أتصل به، هل تشربين معي قهوة الصباح؟".

"نعم بكل سرور!..تفضلي!".

كانت مضطربة جدًا، توجهنا إلى المقهي القريب؛ كنت معتادة تناول إفطاري فيه، طلبت كافيه اسبرسو وفطيرة، وطلبت هي كابتشينو وفطيرة، جلسنا نتناول القهوة في هدوء على أمل أن يحضر العامل.

"نسيت أن أعرفك بنفسي" مددت يدي "أنا صوفيا!".

"مرحبًا، أنا هيلين عائشة".

"إذن تتحدثين العربية؟".

"أنا من أصل عراقي، والدتي إيطالية، أتيت من شمال إيطاليا، وهي أول مرة أزور فلورنس".

"لكن ماذا فقدت؟".

أومات السيدة الشابة برأسها: "فقدت كل شيء؛ كل ما لدي".

"لهذه الدرجة" سألت صوفيا.

"لا بل أثمن كثيرًا".

"في أي البلاد درستِ؟" سألت صوفيا.

"في العراق، وأكملت الجامعة هنا، أنا صحفية".

"إذن لدينا الكثير لنتبادله عزيزتي".

أكملنا القهوة بينما تغير وجه عائشة وهي تتحدث:

قضيت طفولة رائعة مع أبي وأمي وأجدادي، ولدت هناك وكان لي أخ أكبر مني، تزوج والدي من والدتي هنا بإيطاليا، كان أبي فيزيائيًا، وكذلك أمي ذهبا إلى العراق، عملا بنفس الجامعة، كان والدي يقضي وقتًا كبيرًا في العمل وكان يعمل أيضًا في الجيش، بيت جدي كان كبيرًا تحيطه حديقة رائعة.

وفجأة تبدل كل شيء بدأت السماء الزرقاء تزأر، وبدلًا من أن تنظر العيون إليها حبًا وسكينة كنا ننظر إليها رعبًا، بدأت الحديقة تجف، جاء رجال الجيش الأمريكي وأخذوا أبي وسط صراخ أمي ونحيب جدي، لم يمهلونا كثيرًا تحول بيتنا إلى سجن يحيط به الموت، تذكرت الحديقة وأنا أختبئ مع أخي، كنا نلعب لم نعرف أن الاختباء صار قدرنا أن نختبئ في حفرة واسعة تحت البيت، حاول جدي بكل طريقة أن يعرف مكان أبي بلا جدوى.

رأيت سيارة كبيرة قديمة متهالكة بلون رمال الصحراء، ورأيت جدي يدفعنا إليها دفعًا أنا وأخي ووالدتي، كانت أمي مسيحية، وقد خاف عليها جدي، لبسنا جميعًا ملابس سوداء واسعة، ودفع بنا في السيارة على عجل وسط صراخ أمي، كانت تتوسل إليه:

"سأموت معكم، دعني أموت هنا".

كان الجنود على مسافة قريبة وقد ربط لي جدي منديله على أنفي من روائح غريبة تكتم الأنفاس: "انطلقوا اذهبوا" أمر الرجل الذي كان في السيارة بالذهاب، انهارت أمي ووجه أخي لا أعرف له وصفًا حتى الآن.

لم نأخذ شيئًا إطلاقا، لم نودع شيئًا، أُرغمنا على الهرب بعد عدة أمتار كانت قذيفة قد حولت بيت جدي إلى أطلال.

مات جدي، مات بيت جدي، ماتت زهور الحديقة، مات كل شيء حتى روحي كانت تموت، كنت أصرخ، لم يمض وقت طويل إلا وأوقف السائق السيارة وهرب، لكن إلى أين سمعنا صوت رصاصات، والتف حولنا الكثير من الجنود أمريكان وعراقيون، دقائق وقد أخذوا أخي الذي رفع رأسه عاليًا، تحاشى النظر إليَّ أو إلى والدتي حتى لا نرى نظرة انكسار في عينه، صرخت أمي، خبأتني في أحضانها التي ترتعد بلا صوت، دفعونا في جانب من غرفة لا أعرف لها ملامح، وأخبرونا أن علينا أن ننتظر دون إزعاج لهم، سمعت أحدهم يقول: "إنها تحمل جواز سفر أوروبيًا، يجب أن نسأل القادة"، كانوا يتحدثون باللهجة الأمريكية.

لا أعرف كم لبثنا، كانت حالتنا سيئة جدًا، دخل أحد الجنود العراقيين، استجمعت قوتي وأنا أسأله:

"هل قتلت أخي كما قتلت السائق لقد رأيتك؟".

ارتعد الشاب وكان صغيرًا جدًا أصغر من أخي، يرتدي زي الجيش ويحمل بندقية: "لا، لم أقتل أحدًا..هي من تقتل" أشار إلى بندقيته، كان خائفًا جدًا.

"لكنك أنت من تقتل".

"أنا أطيع الأوامر، إذا لم أقتل سأُقتل وسيمثل بكل عائلتي".

"لِمَ؟ لِمَ؟" ظللت أضرب الحائط وأمي تحاول أن تجذبني لكني كنت منهارة.

بعد فترة أتت سيارة وحملتنا إلى السفارة، كانت أمي تصرخ تريد معرفة مصير أبي وأخي

سمعت الشخص الواقف يقول لها:

"إنه عليكم أن ترحلوا فورًا، فلنحمد الله أن لم يصبكم أذى، فلولا هذا المستند الأوروبي لكنتم مع من يغتصبون ويقتلون الآن".

عدنا بعد أن مات فينا كل شيء، ظللنا لفترة نتجنب أن تتلاقى أعيننا.

ظلت أمي تعالج لفترة طويلة في مصحة نفسية، وكذلك أنا تم رعايتي من قبل الدولة، خرجت منها للبحث عن أخي وأبي، بدأت عائشة هيلين تنهار على ذكرى أبيها وأخيها:

"جدي، ولا حتى جدي".

ذهبت وقد وعدتني باللقاء، بعد ساعة تقابلنا مرة أخرى، أخبرتني أنها ووالدتها حاولا كثيرًا عن طريق المنظمات الاجتماعية المحلية والدولية أن يعرفا شيئًا عن أبيها وأخيها، لا شيء، هم والآلاف من أمثالهم في عداد النسيان، أذكر أنهم أرسلوا محققًا - لا يتحدث العربية - في مهمة رسمية للبحث عن عائلتي؛ إلا أنه ظل تائهًا في بلد مثل العراق يبحث عن إبرة في كومة قش إلى أن أصبح سخرية الجميع.

أغلق كل شيء، سافرت بعدها في كثير من منظمات الإغاثة رغم رفض والدتي، إلا أن قلبي قد مات! وما الفرق بين الانتحار والذهاب إلى مناطق الحروب؟ سافرت إلى سوريا، إلى جنوب أفريقيا، مات كل شيء، لم أعد أخشى شيئًا، كنت أريد الموت إلا أنه أتاني في حكايات كثيرة، فقد رأيت ما تعجز روحي عن تحمله.

غابت عيناها وهي تحكي ما حدث في جنوب أفريقيا، وعن ذلك الشاب المسكين وغيره من آلاف الشباب قائلة:

كانت الحياة وكأنها وجهين لعملة واحدة، أكثر أهل البلدة فقراء تعساء، ولهم وجوه غابت معالمها، بينما في النصف الآخر كان هناك الأثرياء، ملوك تجلس على عروش هشة من وَهْم؛ يحملها البائسون على رؤوسهم.

ارتعدت يد الجلاد وهو يمسك بسيفه في انتظار تنفيذ الحكم في الشاب البائس الملقى هناك.

أتى إليه الجلاد في السجن الخشبي المعدم، والذي يمكن الهرب منه بكل سهولة وسأله:

"أتريد شيء؟".

"نعم، أريد بعض الماء".

أحضر له كسرة خبز والقليل من الماء، كانت البلدة فقيرة جدًا معدمة.

جلس "جاكشا" رئيس القبيلة ومن حوله خاصته ومساعديه وكبار القوم تفوح منهم رائحة العطر،

أما الفقراء وغالبية أهل البلدة، فقد افترشوا الأرض بعيدًا حتى لا تؤذي رائحة الموت المنبعثة منهم أنوف السادة.

كان هو مقيدًا، وقد أتى به الجلاد يرتعد لأول مرة، لقد كان أخاه ورفيق طفولته.

"هل سرقت؟" بصوت جهور تحدث شيخ القبيلة.

"نعم، سرقت الخبز لإطعام أطفالي".

"وهل تعرف ما هي عقوبة السرقة؟ هل المسلم يسرق؟".

"لا، ولكني أعمل عند... وهو لم يعطني أجري منذ أربعة أشهر! أولادي جوعى، ذهبت أطالبه بحقي فرفض".

قبل أن يتدارك شيخ القبيلة الأمر كان... قام يوزع الحلوى والسجائر الفاخرة على أكابر القبيلة،

أشعل شيخ القرية السيجارة الكبيرة وهو يسأل الشاب ووجهه مغطى بسحب الدخان:

"ألا تعرف أن السارق تُقطع يده، إن ذلك أمر الله أن يقطع الجلاد يدك في الفجر (ارتعد الجلاد)، أو تركب القارب الصغير إلى بلد أخرى".

"أرحل" أجاب السارق.

خارج النهر يقولون: إن هناك بحرًا كبيرًا، ووراء البحر هناك بلدة مليئة بالذهب؛ الجميع يتحدث عنها، كانت حلم الجميع، والدليل على أنها جنة أنه لم يعد منها أحد، كل من ذهبوا لم يعودوا أبدًا.

ابتسم الشاب في نفسه: "سأرحل سأهرب من جنتكم إلى الجنة".

ابتسم شيخ القبيلة: "إذن في الصباح افتحوا له باب الجنة".

في القارب الصغير وضع زوجته وأطفاله، لم ينظر وراءه، كان يهرب من كل شيء، يا للمسكين! كان مثل كل أهل القرية لا يقرأ ولا يكتب، كانوا عبيدًا، لم يعرفوا أبدًا قيمة بلدهم المعلقة بين جبلين من

ذهب، وأن النهر يصب من بين الجبلين المرتفعين جدًا في شلال قاتل، أنهت عائشة القصة بينما صوفيا غارقة فى دموعها، قمت أهدئها وقد تذكرت أننا ننتظر العامل عندما رن جرس التليفون أسرعنا إلى هناك، دخلت كالمجنونة تبحث على الأرض والأرفف، تبحث كشخص يختنق يبحث عن الهواء، ذهبت إلى سلة المهملات أخرجته، ووضعته على وجهها وقد هدأت، وعاد إليها رشدها إنه المنديل، أخذت تقبله وهي تردد باكية: "منديل جدي".

تمت

١٢. الزوجتان

وكانت تبكي؛ تبكي بكاء صامتًا صمت الفراشات، هل رأيت فراشات تبكي؟ توجهت إليه وكان جالسًا في مكانه في الصف الآخر، هل سمع صوت بكائها بقلبه؟ لا أعتقد فهو مثل الكثيرين لا يسمع إلا صوت الأنا الأعلى يقود جسده المدلل، بدأت صوفيا الحديث بهذه الكلمات أمام هيئة القضاة الجالسين أمامها في انتظار كل حرف تنبس به شفتاها دفاعًا عن تلك المرأة المقهورة، المنكمشه كطائر كسير أمامهم.

كانت عيونه جامدة باردة يدير وجهه في كل مكان، أدارت صوفيا وجهها عنه، بدأت توجه حديثها للموجودين:

"سادتي هو لا يرى في المرأة إلا وجه ولا يرى في أي امرأة إلا جسدًا، ومالًا، وبعض تفاصيل تلائم أوهامه وأطماعه".

وبدأت تحكي عن موكلتها، كانت هي تقود دراجتها النارية عائدة من عملها منهكة القوى بعد يوم من العمل الشاق، فهي تعمل في محل بيتزا صغير يقع في جانب البياتزا الواسعة من شارع فيا دي نييري بمدينة فلورنس العتيقة، هناك تذهب حواء يوميًا ما عدا يوم الأحد فهو إجازة، وكل شيء في هذه البلدة يغلق أبوابه؛ شوارع فارغة في الصباح إلا من بعض السكارى الذين أغرتهم زجاجات الخمر والفتيات الحسناوات للسهر ليلة السبت حتى الصباح في الشارع الصاخب، وهكذا كل

شوارع السنتر تنبض بالحياة يوم السبت ليلًا رغم الأمطار رغم البرد لا شيء يمنعهم من الخروج والسهر ليلًا، ويأتي صباح الأحد صامتًا، وضعت حواء دراجتها النارية في الجانب المخصص لذلك، فهي حتمًا لا ترغب في دفع المزيد من الغرامات، وخاصة أنها تحتاج إلى المال لسداد ما عليها من التزامات فهي أم لطفلين من زواجها الأول.

رآها هو ورأى فيها مصدرًا للمال وقد حصل على ما يريد؛ يسكن، يأكل، يمارس بمهنية شديدة السيطرة التي يرثها البعض عن الأجداد، كان يحسن صنعة والده فهو ببساطة مثال لـ(سي السيد) كما وصفه الأديب الكبير نجيب محفوظ في روايته الرائعة، وقد تعرفت على هذا اللقب من تعاملي مع الشرقيين، أضافت صوفيا: رجل الشرق الحديدي هو كان يعرف أن لديها أطفالًا ليسوا أولاده بل أولاد هذه السيدة البيضاء ذات العيون الزرقاء والشعر الأحمر؛ لم يكترث لهم وهو يسلبها راتبها، لم يكف أذاه عن أطفالها وهو يظن أنه يمكنه فعل ما يريد كزوج أم لم يهتم وهو يطالبها بالمال؛ من أين لها بالمال؟ لا يكترث.

فهي لا تملك إلا البيت الصغير الذي ورثته عن والدتها، ومع ذلك فقد استطاع هو أن يقنعها ببيعه، وأنه بالمال سيجعلها من أثرياء بلدته، مشاريع وهمية لا أثر لها إلا في أكاذيبه وبعض الأوراق الكاذبة التي أوهمها بأنها عقود ملكية خاصة لها.

خفضت حواء رأسها وكانت تستعيد الشريط من بدايته، إلا أن صوفيا اقتربت منها، وبلطف أخبرتها أن ترفع رأسها كانت هناك تتذكر ربما لتجد لنفسها عذرًا لكنها واهمة، أخبرها أنه طالما تمنى زيارتها

له في أحلامه، بل كانت صورتها تتراقص أمامه بجسدها النحيل إلى أن تحقق حلمه أو خطته، كان يعمل معها في نفس المكان كان خباز البيتزا.

كانت نظراته تلتهمها ويحترق جسده بنيران فرن البيتزا كلما مرت أمامه أو سمع صوتها، بينما لم تكن هي تفكر أنها يومًا ما ستقع فريسة لهذا العنكبوت الضاحك أسمر اللون الذي يمازحها دائمًا أنها بوزن ابنته الصغيرة في مصر.

وقعت حواء في الشباك؛ فهي مطلقة أغرتها ابتسامته وسيل الآهات والكلمات التي تنهمر من عينيه دون أن يتحدث، يومًا فيوم تضيق عليها الشباك، فكان ماهرًا في غزل الشباك وليست المرة الأولى؛ فهو خبير في هذا، متزوج، له ٣ بنات، وخبرات متعددة مع النساء وخاصة الثريات، فزوجته في بلده ليست الأولى، لم يحضرها إلى هنا بنفس الحجة المزعومة من الشرقيين "البنات لازم يتربوا في بلدهم، وأنهم لو جاءوا إلى الغرب سيفلت زمامهم ولن يتمكن من السيطرة عليهم، أمهم لازم تقعد بيهم في البيت" ولست بحاجة أن أشرح فالكل يعرف.

وقعت حواء في الشباك، ولِمَ لا؟ فهو يعتقد أن من حقه أربع زوجات؛ يفعل كل شيء باسم الحق هكذا كان يحدث نفسه في المرآة دائمًا حقي.

لم يفكر في زوجته المصرية وقد تركها تصارع الحياة كل يوم حتى تؤدي رسالتها، فهي في صراع مع المدارس والدروس، صراع يومي هنا وهناك حتى لا تسمع كلمة تتهمها بالتقصير رغم أنه لا يرسل لها أموالًا بل كانت تكتفي بالقليل الذي يصل إليها من إيجار بيت قديم

تملكه كما أخبرت موكلتي، وككل حواء كانت تصدق غناء مسيلمة في الهاتف، كانت تحلم وتحلم وسط ظلام الليل الطويل إلى أن فاجأها أنه عائد، وأنه هذا العام لن يحضر إليها بمفرده بل معه صديقة إيطالية ترغب في زيارة مصر، وأن وراءها ثروة عظيمة والكثير من المشاريع وأن عليهم أن يحسنوا استقبالها.

راودها الشك فقد تزوجت آدم بعد قصة حب طويلة وصراعات مع أهلها فقد رفضته عائلتها، ولكن تمسكها به أجبر الجميع على الاستسلام.

قرر الهجرة إلى بلد أوروبي حتى يؤمن مستقبل أولاده كما زعم، وهكذا ذهب آدم ولكنه لم يبق على عهده بعد أن طلب من زوجته أن تبيع كل ما ملكت يداها حتى توفر له المال اللازم للسفر، أعطته حتى خاتم زفافها ولم يتردد، قرر الهجرة بدلًا من البحث عن عمل آخر يعول به أولاده، قرر الهروب من فشله.

بحث كثيرًا عن عمل حتى وجده لكنه ما كان يجد عمل حتى يتركه بحجة أو أخرى حتى لو كانت أسبابًا واهية.

كان يبحث في كل النساء إلى أن رآها، هي إيطالية، سيكون من حقه طلب الجنسية، وسوف يسكن معها ولن يضطر إلى الإنفاق طالما هي تعمل! بدأ يلقي شباكه فورًا حولها إلى أن وافقت على الزواج منه، كان ذلك منذ عامين وها هو العام الثالث يأتي حيث أقنعها أن تذهب معه إلى بلده لرؤية أحواله شديدة الصعوبة هناك في محاولة منه لأن يقنعها ببيع آخر ما تملك؛ البيت الصغير الذي تركته لها أسرتها، وقد نجح؛ أقنعها أن يشتري لها بالمال بيتًا في بلده ويقوم هو بعرضه

للإيجار ممنيًا إياها بكم المال الذي سيعود عليهم، وافقت فهي بحاجة إلى المال بعدما أنفقت كل ما ادخرته عليه، فهو لا ينفق أبدًا عليها بل أقنعها أنه يرسل المال لزوجته الأخرى وأولاده في بلده.

أتي يوم الوصول وتجملت كما طلب منها كانت تريد أن ترتدي الحجاب لكنه رفض، كان يريد أن يرى في عيون أهل بلدته الغيرة؛ فقد نجح مسيلمة بإقناع حواء الغرب أن زواجه من ابنة عمه هو واجب وطني، وأنها قاعدة الشرق ويا لها من قاعدة! ويا لها من معاناة! فكيف له أن يحب ابنة عمه وهو يراها رفيقه طفولته وأخته؟ وكانت حواء تبتسم كلما تذكرت حكاياته عن ابنة عمه وهي تشعر بمهامها الإنسانية تجاهه، فعليها عبء إسعاده حتى ينسى هذه المأساة، وخاصة أنه بدأ الآن يفقد عمله بسبب إهماله الشديد للعمل، ولم يعد لديه أي مقدرة على الإنفاق فهو بالكاد يوفر بعض المال لزوجته وبناته في مصر، وبالتالي عليها هي أن تعمل وتنفق عليه في إيطاليا وعلى أولادها وأولاده.

كان عليها أن ترى البيت الجديد الذي اشتراه لها هناك بعد أن وافقته على بيع بيت أسرتها، ثورة عارمة ولوعة تحرق زوجته المصرية بعد أن تركها في نصف الليل وذهب إلى الغرفة التي تنام فيها المبهمة الصامتة، فهي لا تعرف من اللغة العربية إلا كلمة حبيبي وبعض السخافات التي تعلمتها منه، لم تكن لديها القدرة لتفهم سر الثورة العارمة من زوجته السمراء، فهي تعرف أنه أخبرها بالزواج منذ عامين.

احتضن زوجته المصرية بكل قسوة وهو يصيح: "تعالي، حافهمك كل شيء" وربما تطاول بيده على وجهها حتى يهدئ من ثورتها وهي التي رأته الآن بين أحضان الضيفة.

مرت لحظات صامتة ثقيلة دموع تنهمر من العيون الزرقاء والسمراء قلوب تنتفض، كيف يراهم هذا الأبله فها هي زوجته الأولى قد أرسلت بناتها عند جدهم حتى تهدأ، أما الأخرى فقد تركت أولادها عند صديقة حتى تعود من رحلتها، هم الآن وجه لوجه بين الحقيقة والكذب؛ بين متاهات الخداع متي ستقف حواء لتعرف الحقيقة؟ اتفقا على طلب الطلاق والهروب من جنته الكاذبة المزعومة، فهو لم يرسل لزوجته الأولى أي أموال منذ ترك بلده بحجة أنه في الغربة بحاجة إلى أموال، نظرت زوجته الإيطالية إلى زوجته المصرية بسؤال واحد: أين بيتي الذي اشتراه لي بأموالي؟

سؤال يلح عليهما معًا؛ لم يكن منه إلا الأكاذيب، الألم لا يعرف العنصرية البذيئة حتى يفرق بين امرأة الغرب أو الشرق، هي أنثى تصارع الكذب، أما زوجته المصرية فقد جلست بعيدًا في ركن الغرفة لتستعيد ذلك الشريط المؤلم عن المطلقات، كيف لها أن تتحول إلى مطلقة، وتمثلت لها عيون أسرتها وصديقاتها والجيران، وحتى زوجة حارس العمارة وهي تنظر إليها بعيون الشفقة كلما مرت عليها انتفضت! لا لن أكون مطلقة، فضلت أن تسير بقاربها المكسور الغارق على أن ترتدي عباءة امرأة مطلقة.

أما موكلتي فقد عادت بسرعة إلى هنا هاربة بعد أن رفضت أن تقع فريسة لتوسلاته، وعاد وراءها أخبرها أنه لن يعطيها أي أموال، وأنه لن يعيد إليها شيئًا انتابها خوف وشعور قوي بعدم الأمان معه، وها هي الآن تستعيد حريتها وأمام قاضي الأسرة في المحكمة العتيقة تحت رمز الميزان الكبير كان يقف هو في الجانب الآخر بينما صوفيا إلى

جانب السيدة تتحدث، سيدي أطالب هذا الرجل بأن يترك لهذه السيدة حريتها وأن يعيد إليها كل أموالها، صمت الجميع في انتظار دقات القاضي لكسر الأقفال.

* * *

١٣. أحلام ملونة - الجزء الأول

أحلام تلوثها الحقيقة أم حقيقة تلوثها الأحلام، أحلام تقتلها الحقيقة أم حقيقة تقتلها الأحلام.

حياة تتأرجح بين الحقيقة والأحلام وما بينهما ثوانٍ وساعات وأيام وسنين هل سنظل في سجن الماضي؟ وتجمد الحاضر أم ننظر بعين الأمل إلى الأمام؟

هكذا بدأت هي حكايتها، وهي تخفي دموعها بابتسامة مرة ثقيلة تكاد ترسمها بشق النفس وبلهجة فيورنتينة أصيلة بدأت تمزج الكلمات مع العربية الرديئة التي تعرفها، كانت تعرف بعضًا من اللهجة المغربية التي تعلمتها من زوجها وأسرته.

فقدت أبي وكنت في السادسة من عمري حينما رأيت الأيادي تربت على وجهي ولم أعرف لِمَ؟ أذكر فقط كلمة (بوفرينا) أي: مسكينة، لم أبال غير أني لم أعد أرى أبي الذي لم أكن أعرف اسمه إلا أن أخبرتني معلمتي بأنه يسمى نتالي فقط كان أبي (بابو) كما تعلمت أن أناديه هنا كلمة عامية تستعمل فقط في توسكانا بمعني أبي.

ألبستني جدتي ملابس جديدة كالتي أرتديها في الاحتفال بعيد ميلادي، سمعت اسم نتالي يقرأ وسط بكاء شديد من أمي وجدتي وخالي لأمي وبعض الجيران، ورأيت أبي في غرفة صغيرة،

ينام على سرير أبيض يرتدي ملابسه المفضلة ورابطة عنق أنيقة، ثم رأيت صندوق بني اللون يهال عليه التراب ولم أره منذ ذلك الحين إلا بضع مرات في أحلامي، وكلما أتى النتالي أي (عيد الكريسماس)، وكان قدري أن يكون اسمه نتالي كبابو النتالي أي سانتا كلوز بهذه الذقن البيضاء بياض أحلامي وملابسه الحمراء بلون الألم الذي أشعر به، كنت أنتظر بابو النتالي يأتي إليَّ لأسأله عن أبي، إلى أن حدثت مفاجأة كبيرة في حياتي في سن ١٤ عامًا شعرت بأحاسيس غريبة وكنت انطوائية وشديدة البكاء، رغم أن والدتي الشابة الجميلة رفضت أن تتزوج من أجل تربيتي وانهمرت في تدليلي هي وجداتي الاثنتين كانتا على قيد الحياة، وقد كانتا أرامل، وكانتا تعيشان معًا، وأصبحنا أربعة أجيال من النساء في بيت واحد.

كن يجتمعن ويختلفن يضحكن ويبكين ويتشاجرن، ورغم أني أحبهم إلا أني كنت أضجر منهن في بعض الأحيان فأذهب عند جارتي وكانت شابة مغربية صغيرة العمر مع زوجها وطفلين كنت ألاعب طفليها، وأجلس معهما حينما تعود هي من عملها، فجأة رحلت جدتي الأولى في نفس الصندوق الذي رحل فيه أبي، بكيت كثيرًا وكنت أفكر في الموت ما هو؟ هذا الصندوق المستطيل كان يعني الكثير بالنسبة لي هو الرحيل؛ لكن إلى أين؟ بدأت أتعلم من جارتي أشياء جديدة عن دينها اسمه: الإسلام، كنت أبكي فقط لا أهدأ إلا حينما أرتدي الثوب الذي أهدته لي جارتي تقول: إنه للصلاة، وكان عندي فضول أن أرتديه مثل ابنتها، كانت أمي تراقبني عن بعد رافضة أن تتدخل في شؤوني، وكانت دائمًا ما تخبرني أني أشبه أبي، وأني هدية تحمل عطر ذكريات

أجمل أيام قضتها مع أبي، كنت أشعر أن أمي جريحة على الرغم من أناقتها التي تلفت الأنظار.

اصطحبتني أمي إلى الكنيسة الصغيرة بجانب البيت بعد أن ساءت حالتي جدًا كنت أبكي بحزن شديد وهناك اعترفت بكل شيء، أنا أشعر أني مسلمة كنت أبكي باستمرار وتنهمر الدموع من عيني لغسل أحزاني وتبشرني، كنت أخاف من أن تحزن أمي أو أن يغضب راعي الكنيسة ويخبرني أني مذنبة إلا أن كل هذا لم يحدث، فقد ربت على كتفي قائلًا:

"إذا اخترت الإسلام إذن أنت مسلمة والله هو الرب واحد في السماء، فقط كوني سعيدة حيث اختارك الرب".

ضحكت ضحك طفلة عمرها ١٥ عامًا، وبدأت أصلي أمام أمي التي لم تتركني لحظة بل كانت تصحبني إلى هناك إلى المركز الإسلامي، وتنتظر خلف الصفوف حتى أفرغ من الصلاة وكانت تأتي معي في الاحتفالات والأعياد، وتساعدني في إعداد الحلوى والهدايا للأطفال يوم العيد، لم تتركني، كانت معي لم تمتعض ولم تقهرني، بل تعرفنا إلى صوفيا تلك السيدة النشيطة التي توجد دائمًا لتمد يد المساعدة للجميع، وقد ساعدتني كثيرًا ووجدت عندها ملاذًا لأسئلتي وقد كانت تناديني مريم، مرت الأيام وأنهيت دراستي وكنت ما زلت أتواصل مع جارتي التي تعلمني الدين وأذهب معها وأولادها إلى الحديقة ونخرج معًا، وكانت أم لأربع أطفال وتحتاج إلى المساعدة، إلى أن اتصلت بي يومًا مبكرة أن أذهب إلى بيتها لأجلس مع ابنتها الصغيرة حتى تعود من المستشفى فقد كانت مريضة.

ذهبت هناك وبينما أجلس مع الأطفال أتى ابن خالتها يسأل عنها فأخبرته أنه لا أحد في المنزل، وكان شابًا صغير العمر أكبر مني، لكنه نظر إليَّ نظرة حملتنا إلى أحلام بعيدة ما كنت أصل إليها لولا أن نظرت في عينيه، سرت الأمور بسرعة شديدة، فقد تقدم فورًا إلى والدتي ووافقت هي فورًا وأوكلت الأمر إليَّ، فقد كانت تعلم أن الشباب في مثل عمري يقومون بالكثير من الخبرات أما أنا فما زلت بلا أي خبرة إطلاقًا، وكان هذا بالنسبة للعائلة مقلقًا، ولذلك وافقتَ ووافقتُ أنا الأخرى، وتم الزفاف سريعًا على أن نسكن مع أمي وجدتي، وقد خصصت لنا والدتي غرفة جميلة تليق بطفلتها وباليوم الذي تنتظره منذ موت أبي، أعدت لي مراسم زفاف إسلامية وكذلك أمام الدولة كنت أشعر أني في حلم جميل يتحقق.

❊ ❊ ❊

أحلام ملونة - الجزء الثاني - الغيبوبة

لن أطيل عليكم، مرت الأيام سريعًا ومن جديد الصندوق حمل جدتي الثانية وانصرف، وبقيت أنا وأمي وهو، ولم أكن أعرف ما يخبئه لي القدر.

في صباح أحد الأيام اتصلت جارتي تخبرني أنها ستذهب إلى المستشفي لعمل عملية جراحية بسيطة وأنها ستخرج في نفس اليوم، ذهبت واحتسينا القهوة معًا، واصطحبنا الأولاد إلى المدرسة وذهبت هي مع زوجها إلى المستشفي وعدت أنا مع الطفلة الصغيرة إلى البيت ننتظر، نامت الطفلة وظللت أنا أقرأ في كتاب وآكل شرائح الفطير المغربي اللذيذة التي صنعتها صديقتي قبل أن تذهب، مرت الساعات ببطء ولم يطمئني أحد كما اتفقنا، اتصلت بالتليفون رد عليَّ زوجها قائلًا: إن هناك مشكلة وإن شاء الله خير، بدأت أعدد ما يمكن أن يحدث؛ طافت بعقلي الكثير من الأفكار تتجول حرة طليقة، الظنون تتهادى أمامي وصرخت بصوت عالٍ أفزع الطفلة فصرخت تبكي هي الأخرى.

أمسكت التليفون بعد أن هدأت الطفلة وكانت تبلغ عامًا ونصف العام، ماذا حدث؟ صوت غارق في الألم حزين مكتوم، انفجرت الدموع من عيني ماذا؟ غيبوبة! نعم، دخلت جارتي في غيبوبة، صدمة

حبستني بين حوائطها لمدة أسبوع لا أفكر ولا أدرك، فقط الأطفال كنت أتناوب عليهم أنا وزوجي إلى أن حضرت والدتها من بلدها البعيد، ماذا؟ غيبوبة.

مرت سبع سنوات ثقيلة بطيئة مريرة انتقلت فيها عائلتها إلى بيت آخر بجوار المستشفي حضرت والدتها لتربية الأطفال، وآخر ما رأيت فيها جسد ملقى على فراش أبيض غارقة بين الأسلاك توقف كل شيء فيها إلا حاسة السمع، فبمجرد سماع صوت الطفلة الصغيرة كانت تنهمر الدموع الساخنة على وجهها ومن عيون فقدت نورها، فقدت أيضًا البصر فقدت كل الحواس إلا السمع، وكانوا يحضرون لها أولادها إلى أن بدأت الطفلة الصغيرة ترتعد خوفًا من شكل الأم، وخاصة بعد تساقط شعرها وبدأ جسدها يتآكل من الفراش، وحتى الأولاد الكبار قرر الأطباء عدم السماح لهم بالزيارة بعد أن انهارت حالتهم النفسية، وبدأت تظهر عليهم أعراض عنف وحزن شديد، أما هي فما زالت في الغيبوبة حتى الآن فقط في العام العاشر بدأت تفيق، لكن فاقدة لكل الحواس، أصبحت جسدًا يحمله كرسي بعجلات لا أخفي عليكم كم كانت تتمنى الموت! هتافات آلامها كان بودي أن أسألها إن كانت روحها في مكان أفضل الآن هل هي سعيدة؟ هل تزوج زوجها؟ ربما يكون السؤال الأول عندما تسترد وعيها.

❋ ❋ ❋

أحلام ملونة الجزء - الثالث الصندوق

مرت الأيام سريعًا، ولم أكن أتصور أن القادم أسوأ، فقد كانت أمي تتشوق إلى أن ترى طفلي وأن تحمله، وقد حقق الله أمنيتها ولم تحتمل أمي الفرحة، فبمجرد عودتنا من عند الطبيبة كانت أمي تعد غرفة الطفل، وتختار بعناية لون الحوائط ولون الثياب، وكأن بابًا من أبواب الجنة قد فُتح لها، نسينا كل شيء؛ نسيت مضايقات زوجي وقد رحل هو إلى إجازة بدوني أما الآن وقد أخبرته بالقادم الجديد فقد قرر أن يعود.

لا أخفي عليكم كنت أتعجب من سعادة أمي، كانت سعيدة أكثر مني؛ ربما لأنها تظن أن الطفل سيكون حلقة وصل ما بيني وبين زوجي من جديد، ربما لأن العائلة لم تر حفيدًا منذ سنوات، وهذا هو حال أغلب العائلات الإيطالية منذ أن تعادلت نسبة الوفيات والمواليد فالموت قليل والمواليد أقل، ولذلك بدأت أتفهم شوق أمي إلى طفل، وقد أخبرتني أنها متأكدة أن الطفل سيكون مثل أبي، عملت أمي كثيرًا وقد قررت الآن أن تصبح جدة، فقدمت استقالتها من العمل لتتفرغ للطفل، وكانت تصنع كل شيء بيدها؛ تصحبني للطبيب الوقت يمر سريعًا، وأنا في الشهر السابع تزداد لهفة أمي وتجاهل زوجي لي، إلى أن كان يومًا سقطت أمي في أرض المطبخ وسقط قلبي معها، ناديت

سيارة الإسعاف التي حضرت بعد ٥ دقائق وأخذت أمي، أخذت روحي أخذت حياتي أخذت كياني وعقلي وذكرياتي وقوتي، أخبرنا الطبيب بأن أمي لن تكمل أسبوعًا على الأكثر فهي تموت، كان لديها ورم كبير في المخ ولا يمكن لمسه في هذه المرحلة المتأخرة جدًا، كيف؟ بدأت أصرخ: كيف لم أشعر بآلامها، تلك الزهرة الأنيقة الجميلة التي لم تكمل ٥٠ عامًا كيف تحملت الألم ولم تخبر أحدًا طوال هذه الأعوام كيف؟ يا رب هب لي القدرة حتى أفهم، هب لأمي الأنفاس حتى ترى طفلي.

كانت أمي تعيش بالمخدر حتى لا تتألم، ومن العجيب أن أمي الباسمة الآن تتألم، وضعوها في فيلا خاصة توضع فيها الشموع إلى أن تنطفئ، وضعوا أمي في مكان للموت وكانت تخفي آلامها أمامي، وأذكر أني نسيت هاتفي في غرفتها وعدت لأحضره إذ بصرخة ألم مكتومة تشق قلبي إلى نصفين إنها آلام أمي، عدت وقد مات فيَّ كل شيء.

ومن جديد رأيت الصندوق ولكني الآن كبيرة، فهو ليس صندوق الساحر العجيب الذي كانت أمي وجارتي يأخذونا لرؤيته في السنتر حيث الساحر يلهو هناك، لا بل اسمه التابوت بعد أيام ستدخل فيه أمي ولا تعود، خذيني معك يا أمي لن أعيش بدونك، أخذت أصرخ حتى أفقت في المستشفى

أتى زوجي في الصباح وأخبرني أن أمي تريد أن تراني وكنت أكثر رغبة أن أذهب، كانت شاحبة، لم أعتد أن أراها بهاتين الشفتين الزرقاوتين، وعينيها الصافية بلون السماء كانت مثبتة عليَّ وبين الحين

والحين تقول كلمة واحدة: "أموري" أي طفلتي حبيبتي، لم أكن أتكلم لم أكن أبكي، لم أكن حية، كل نبضي متوقف كنت فقط أريد أن أنهل من وجه أمي حتى إن الأطباء قرروا حملي فورًا إلى غرفة العمليات، ولد الطفل وآخر كلمة نبست بها قبل أن أدخل في نوم المخدر طلبت من زوجي أن يصور الطفل الذي ولد ويحمل الصورة إلى أمي بسرعة، وفعل هو ما طلبته، فقد صور الطفل وخرج يجري إلى الغرفة الأخرى إلى أمي إلى روحي، كانت تنطفئ فقد أخبرني أنها فتحت عينها ونظرت إلى الصورة الصغيرة وهي تبتسم، نعم رأته أمي ورحلت، وكنت أنا مغمى عليَّ لمدة يومين لا أعرف أين أنا؟ أنا خارج الحياة في ذلك الحيز الشفاف حيث لا أرى غير روح أمي تحلق معي منذ طفولتي، رأيت كل شيء، كانت يدها تمسك يدي وتربت على كتفي حتى أتماسك، وأنها تحملني كما كانت تحملني طفلة صغيرة بين ذراعيها وضعتني على عربة الأطفال التي تخصني، وكانت أمي تحتفظ بها في المخزن الصغير، ووجدت نفسي أجلس على كرسي بعجلات يجره أحد عمال المستشفى، وهيئ لي أن أمي من تدفعني، وهناك من بعيد كانت أمي على سرير صغير كالملائكة، وقد ألبستها إحدى قريباتي ملابسها الأنيقة ونثرت عليها الزهور لترحل هناك من حيث رحل أبي من جديد رأيت الصندوق، هنا تبدأ الرحلة ويبدأ السفر، وكنت أقرأ القليل من القرآن الذي تعلمته، وطالما أن الحياة تبدأ بألم وتنتهي بألم وصندوق كبير لِمَ يضيع منا العمر؟ دقات رهيبة في رأسي لم يكن عامل الموتى يغلق الصندوق على أمي بل كان يغلق على حياتي نعم أنا ميتة، وبعدما رحلت أمي بدأ العمال يسقطون الصندوق شيئًا فشيئًا داخل حفرة كبيرة وروحي تسقط معها، حاولت إلقاء نفسي معها لكن

يد العامل كانت أقوى مني، وبدأت أمي رحلتها وقد نسيت أن تعيد إليَّ روحي التي ذهبت معها أو تركتها لطفلي الآن فقط عرفت لِمَ كانت أمي تهيم فرحًا بطفلي، وها أنا الآن بعد أن مرت سنوات أجلس كل يوم أحد على قبرها وأنثر فوقها دموعي وزهور من الحنين والشوق.

تركني هو لوحدتي وطفلي بعد أن أخبرني أنه يريد الانفصال ووافقت على الفور.

* * *

١٤. صوفيا

من أين تنشأ الأفكار؟ ولماذا تهاجمنا دائمًا كلما اختلينا بقهوتنا، كانت "صوفيا" في غرفتها بالبيت الصغير الموجود في سنتر مدينة "فيرنزا" العتيقة، تنظر إلى نهر"الأرنو" الساحر، وهو يداعبها يغريها بعطره للتنزه على شاطئيه من جديد تحت نسيم الصباح العليل، تستمتع بقهوتها بعدما قضت ٢٠ دقيقة في ممارسة رياضة الجري على شاطئه، كانت عادتها الصباحية للتخلص من الأفكار التي تطيح أحيانًا برأسها فهي لم تنس أبدًا بعض حكايات النساء في "المركز الإسلامي" التي كانت ترتاده بصفة شبه أسبوعية للاستماع إلى قصص الذكريات التي تخلعها كل واحدة عنها كثوب قديم مهلهل نسجت على أطرافه آلام ودموع الغرباء، وحكاياتهم التي تجمعها في كتاب الذكرى، وربما يكون حاضرًا فتلملم من خبرات الباقين خيطًا تحيك به جراحهم، وتنسج منه روايتها التي تنشرها في جريدة عربية.

كل ما يشغل بالها هي تلك الفكرة الغريبة التي تطاردها الآن عن ماضيها، فقد هزت حكايات النساء داخلها بعنف، رغم عمرها القصير في الحياة لماذا نفكر ونتذكر؟ هل كانت الحياة ستكون أفضل لو انطلقت كنهر جارٍ بلا عودة أبدًا إلى الوراء بلا توقف؟ أزعجها التفكيرالذي أطبق على أنفاسها فألقت بالفوطة الكبيرة من حول

عنقها وشربت آخر رشفة من القهوة في الفنجان الكبير. وذهبت تبدل ملابسها فقد حان وقت الكتابة، وقد أتت الأفكار والذكريات تتساقط على الورق أمسكت القلم الذى اعتاد رسم دموع ومآسي النساء، صوفيا لم تكتب أبدًا عن نفسها وها قد آن الأوان.

نعم صوفيا أو (صفية)، اختار لها أبوها العربي هذا الاسم الذي يحمل معاني النقاء باللغة العربية صفية بينما لم يزعج والدتها الإيطالية التي رحبت بالاسم عندما علمت أنه (بوريتسا) باللغة الإيطالية، وبدأت ذكرى والدتها تراودها كثيرًا، أخذت تستعيد روح طفولتها هناك في مدينة الإسكندرية حيث وُلدت هناك من أب عربي وأم إيطالية؛ تعرفا هناك على شاطئ الإسكندرية الساحر، كانت والدتها في زيارة إلى مصر وبخاصة مدينة الإسكندرية عند أصدقاء لها حين التقت لأول مرة بوالدها في حفل أقامه النادي على الشاطئ؛ كان شابًا فارع الطول خفيف سمار البشرة، واسع العينين من أصول مصرية لعائلة ينتهي تاريخها إلى أصول يهودية ممن عاشوا حياتهم في مصر.

تعرفت روحاهما كما أخبرتها والدتها، لم تكن تدري من أين بدأ العشق؟ أهو للإسكندرية أولًا أم له أولًا؟ تزوجا، رفضت أمها العودة إلى إيطاليا، وعندما ولدت صوفيا أصرت والدتها أن تحملها إلى المسجد لتباركها هناك في أنشودة سلام عاشتها مصر حيث كان الانسجام بين كافة أبناء الوطن وابتسامة الرضا على الوجوه.

عاشت صوفيا فترة كبيرة في مصر تتلقى تعليمها الثانوي في مدارس الإسكندرية العريقة إلى أن توفي والدها في حادث مؤلم، فقد كان مهندس بترول، لم تطق أمها العيش بدونه قررت الرحيل

إلى موطنها حاملة معها صوفيا والحنين، وبعض الكتب والصور، وكثيرًا من الذكريات، وقد بدأت السياسية تغير من أوضاع المجتمع كثيرًا، سقطت دمعة على وجهها وهي تتذكر معاناة أمها مع المرض إلى أن رحلت وهي تواسيها أن لا تفكري كثيرًا يا ابنتي بل عيشي ما كتب الله لك، كوني وراء سعادتك في أي مكان! إذا راودك الحنين فحلقي معه، وها هي الآن تشعر بالحنين لكل شيء، لوالدها الذي تركها شابة صغيرة، لوالدتها ذات اللكنة الأوروبية التي كانت تثير ضحكها، فكانت تجتهد هي لتصحح كلمات والدتها وسط ضحكات الجميع، عندما كانت صغيرة كانت والدتها ترسلها لشراء بعض الأشياء من الكشك المجاور للمنزل، فكانت تنطق الكلمة كوالدتها فلا يفهمها البائع فتضطر للعودة إلى المنزل أكثر من مرة، وربما ترسم لها والدتها الشيء حتى تستطيع شراؤه؛ مثل الحنة فكانت تقول للبائع: أريد "خنة" أو الطحينة التي تحبها والدتها، فكانت تنطقها "تخينة" فلا يكون من البائع إلا الضحك، لم تهنأ كثيرًا بابتسامتها، فقد تذكرت أن والدتها ترقد في (الشيميتيرو)، وأن والدها يرقد في مقابر الإسكندرية.

ربما ثارت داخلها الذكريات لرؤية السيدة العربية وابنها أمس، لم يكن ذلك فقط بل الرسالة التي تلقتها أمس مساء بعد عودتها ولم تجرؤ على قراءتها حتى الآن، أمسكت التليفون نظرت إليه بخوف ولهفة وكأنها تفتح باب الألم؛ لقد عانت كثيرًا وهو الآن يلاحقها من جديد، لم تستطع المقاومة فهي فعلا تحبه إلى أين تهرب؟ كلما حاولت كان الهروب دائمًا منه إليه، فتحت الرسالة ولم تكن سوى كلمة واحدة: أحبك (تيامو *Ti amo*).

رن جرس التليفون وأتاها صوت عربي:

"صوفيا هل ستحضرين اليوم إلى المركز الإسلامي؟ فهناك مجموعة من الزائرين من الجامعة سيأتون للتعرف على الجالية العربية وأوضاع المهاجرين، يمكنك عمل تقرير عن ذلك للجريدة غدًا".

أجابت بلا بحماس: "نعم سأحضر، هل أعرف بعضًا من الضيوف؟".

فأجابها الصوت: "ربما؛ هم بعض السياسيين من الأحزاب المؤيدة للجاليات العربية والهجرة، والتي تطمع في الحصول على أصوات الجالية في الانتخابات القادمة".

وكانت تكره كثيرًا هذه اللقاءات التي لا فائدة منها، فهم يأتون فقط بقناع باسم من أجل الأصوات الانتخابية بعد ذلك يتبدل القناع، "إذن نلتقي في المساء".

كان الوقت قد تحرك بسرعة شديدة دون أن تدري، فدخلت إلى المطبخ الصغير وبدأت في إعداد طبقًا من الإسباجتي اللذيذ وبعض السلطة، لم تنس أن تضع بعض الحبوب للعصفورين الصغيرين الهائمين في الغناء في مملكتهما الصغيرة، والتي ترغب يومًا ما أن يشتد عودهما حتى تترك لهما باب القفص مفتوحًا ليذهبا إن أرادا الذهاب!

عادت إلى مكتبها بصعوبة شديدة تحاول التخلص من أثر الرسالة ذات الكلمة الواحدة التي تحرك كل شيء؛ القلب، الذكرى، الألم، الحب، تذكرت ذلك الشاب الفارع الذي اصطدم بدراجتها النارية وهي عائدة ليلًا، أصابها رعب شديد، فقد كانت الأمطار شديدة ولم تلحظ أن إشارة المرور تعلن اللون الأحمر، سقطت على الأرض

إلى جانب الدراجة بينما لم يحرك ساكنًا، لم تكن الصدمة بهذه القوة ليموت: "يا إلهي" صرخت بالعربية "يا إلهي! هل مات؟".

لم يجب ولم تكن الأمطار تسمح لأحد برؤية ما حدث، قليل جدًا من المارة في الشارع في شتاء قارس البرودة أجابها: "لا، لم أمت، بل فقط لا أستطيع الحركة".

"هل أنت عربي؟".

أجاب بسرعة: "نعم".

"وتصنع الموت! هل أصحبك إلى المستشفى؟ هل أنت بخير؟".

"نعم، أشعر فقط أني لا أستطيع الحركة" كانت الأمطار شديدة ورغم ملابس المطر البلاستيكية السميكة إلا أنهما يرتعدان.

"هل تستطيع أن تركب ورائي؟" أشار برأسه سأحاول، لم تميز ملامحه في الليل على ضوء الإشارة الخافت، حملته؛ ركب معها وعادت بسرعة إلى منزلها القريب في سنتر فلورنس. ساعدته حتى يصل إلى المصعد الكهربائي وكانت مياه الأمطار تتساقط من ملابسهما، دخلا إلى المنزل أشعلت المدفأة، ثم سألته إن كان بحاجة إلى طبيب، فأجاب إنه بحاجة إلى النوم ولا يشعر بشيء آخر.

أعطته كوبًا من الشاي الساخن وغطاء لينام على (الديفانو) الأريكة المريحة في الغرفة، ساعدته على خلع ملابس المطر المبللة، ثم ذهبت تحاول النوم بصعوبة بعدما مر بها من أحداث.

في الصباح تعرفت عليه؛ إنه نفس الشاب الذي يلاحقها من فترة، لقد رأته في العديد من الندوات الجامعية، كان صاحب آراء

وسطية ينتمي إلى فكر مميز، راودها شك بأنه يتصنع المرض، وربما تصنع الحادث ليتعرف عليها من قرب، كان شابًا عربيًا من مصر يحمل ملامح مصرية تعرفها وتحبها، ترى فيه وجه والدها وملامحه المصرية؛ لذلك لم تمانع في فكرة تجربة معها وخاصة أنها فقدت والدتها منذ شهور قليلة، وأن أقاربها قليلون جدًا، لم يكن لها الكثير من الأصدقاء؛ لأنها قضت أغلب حياتها في مصر، ورغم إتقانها لغة والدتها الإيطالية إلا أنها كانت تشعر بالغربة، وكلما راودها الحنين إلى طفولتها كانت تذهب مع والدتها إلى المركز الإسلامي حيث تشعر بالدفء؛ حتى أصبح ارتياده جزءًا من حياتها، بل أصبحت تساعد الجميع هنا لما تحمله من لغة عربية وإيطالية جيدة.

كانت محبوبة كثيرًا من الجميع، ورغم أن شهادة ميلادها لم تحمل ديانة إلا أنها كانت تحمل في قلبها الإيمان، فكانت تصلي بقلب نقي، وتدعو لأمها وأبيها ولم تمانع عندما طلب منها الزواج، بعد أن أنهى عامه الأخير في الجامعة، طلب أن يتم زفافهما في المركز الإسلامي على الطريقة الإسلامية رحبت كثيرًا، وكانت من أجمل الليالي حيث زينتها النساء هناك بالحنة بينما أعطتها سيدة تونسية الثياب المطرزة لترتديها في حفل الزفاف مما زادها روعة وجمالًا فقد كانت نحيفة جدًا، ولها شعر أشقر طويل أخذته عن والدتها، بينما تحمل ملامح والدها ذي العيون السوداء الواسعة والبشرة المائلة إلى الخمري، وكان الحفل رائعًا، وسعدت مع الجميع.

مرت الأيام في كامل السعادة، لم يكن يطالبها بشيء في بادئ الأمر، إلا أنه بعد ذلك بدأ في التضييق عليها، وأمرها أن ترتدي

الحجاب، وأن تعتنق الإسلام، بدأ يعنفها على كل شيء، وبدأ لها أنه يضع الدين كعقبة بينما هناك بعض المواقف لا يتدخل فيها الدين، بل قرر ألا ينجب إلا إذا اعتنقت هي ديانته، بدأ يتبدل تمامًا، ويعنفها على كل شيء حتى إنه بدأ يضع لها القيود والعراقيل، وحدد لها العديد من الكتب لتقرأها.

شعرت أنه يتغير، وأنه يتذرع بالدين حتى يتخلص منها، بل رفضت أن يجبرها على شيء، قررت هي أن تتركه إلى حال سبيله، وقلبها وقلبه يعرف من هي، لم تكن بحاجة إلى ضغط من هذا النوع حتى يعرف ديانتها، ولم تكن بحاجة إلى ورقة لتعرفه ديانتها، بل هي من تشككت في أمره، رفضت سيطرته الشرقية وكانت تعرفها جيدًا.

رأتها كثيرًا في الأفلام وفي الواقع، وسمعت عنها من زميلاتها، وربما بعض تصرفات والدها ربما لو ترك هو الأمر لأقدمت عليه دون تردد، دفعتني صعوبة الموقف إلى الكثير من الأفكار التي طافت برأسي كسيول باردة أحيانًا وساخنة أخرى، إلى أن طلبت مني صديقة لأمي أن أذهب معها في رحلة عدة أيام حتى أعود إلى صوابي بعد أن احتدم الخلاف بيني وبينه، وافقت على الفور، وكم كنت محظوظة جدًا عندما اصطحبتني صديقة أمي وقريبتها إلى مكان يبعد عن المدينة ساعة ونصف بالسيارة؛ حيث طرق جبلية يضيق حجمها شيئًا فشيئًا إلى أن أصبح الطريق الكبير المتفرع طريقًا واحدًا يمتد بين الجبال كحبل طويل يتلوي بين أرجائها، وضاق الطريق إلى أن أصبح طريقا واحدًا بعد أن أصبح لا يكفي حتى لسيارة، ابتسمت وسط ذهولي وصمت

الطبيعة الذي ما لبث أن تحول إلى غناء عذب مخيف رائع لشلالات المياه المتساقطة حتى تتجمع في شلال واحد كبير.

كان علينا أن نستمر في صعود الجبل المستقيم وسط طريق يكفي لفرد واحد من الحبال والأخشاب لمدة ٢٠ دقيقة حبست فيها أنفاسي أفكر في حياتي التي مرت وزواجي الفاشل، كان الطريق مظلمًا بسبب الأشجار الكثيفة إلى أن بدأ النور يظهر شيئًا فشيئًا، لم تكن الشمس الساطعة فقط هي مصدر النور، بل إني اكتشفت أن هناك نورًا داخل نفسي، داخل أنفسنا إذا اكتشفناه فإنه سيعيدنا إلى الطريق مهما ابتعدنا، ومهما كانت صعوبة الموقف هناك في الأعلى، قررت وبعد أن قضينا هناك فترة في بيت جبلي معلق لم يكن هناك أحد سوى عدة بيوت متناثرة على حافة الجبل لقرويين قرروا العيش في أمان بعيدًا عن زحام الحياة.

كنت قد تخلصت نهائيًا من آلامي، واختفى الضجيج من رأسي إلى غناء الطيور والأشجار، وتراقص الزهور على شمس ربيع يغمرها بالحنين، هناك وجدت نفسي، قررت أنه عند عودتي أن أكتشف الربيع، وأن أسكنه في روحي، وألا أسمح لأي شخص أن ينتزعه مني، قررت أن أكتب لكل أنثى أن لا تهربي من جنة آدم بل إليها، كوني أنت جنتك، وأن أستمر في الكتابة عن كل أنثى غريبة بين جدران الغربة وجدران جنة آدم.

وعندما عدت ذهبت كعادتي إلى المركز الإسلامي وأعلنت إسلامي، وها هو يعاود من جديد بعد عامين من الانفصال والزواج بأخرى، كنا زوجين على الطريقة الإسلامية فقط، ولم يتم توثيق الأوراق

أمام الدولة الإيطالية أو في أي جهة رسمية؛ لذلك قد تمكن من الزواج بسهولة، بدأ يعاودني الحنين إلا أني رفضت الاستسلام؛ رفضت العودة إليه، قررت أن أهرب من جنته المحاطة بالأغلال، حملت جهاز التسجيل الخاص بي، أغلقت باب الغرفة، أنا أمسح الرسالة ومعها رقمه إلى الأبد، انطلقت في طريقي إلى المركز الإسلامي لحضور اللقاء وعمل التقرير المطلوب مني.

* * *

١٥. دمت بعيدًا أيها الحب

صوفيا، بعد أن قضت ليلة كاملة تبكي وتصرخ دون أن تبالي بالأمطار التي تكسر صمت الليل ممزوجة بأشعة صفراء تنبعث من أعمدة الكهرباء، فتبعث نورًا صامتًا حزينًا، يشبه وجوهًا غاضبة تشاركها الأنين والصراخ تحت أغنيات المطر الراعد، كانت هذه الحالة قد انتابت صوفيا بعد أن قرأت خبر قتل الطفلة أمل في الجرائد، وقد أكدت لها المعلمة ذلك، فقد وصلت رسالة حزينة من أم الطفلة إلى المعلمة بعد أن فقدت صوابها.

عادت صوفيا إلى منزلها القاطن في السنتر العتيق، وهي تجر من الأحزان ما لا طاقة لها به، فقد فقدت صوابها، وأعلنتها حربًا شعواء على تلك العقول الحديدية، فقد هزت حكايةُ الطفلةِ المجتمعَ وعرضت صورة من الفكر يشمل من الخطورة ما لا يجب السكوت عنه أو إخفاءَهُ، لم تكن بخير، بصعوبة أرسلت إلى صديقتها ياسمين التي أتت إليها مسرعة، وها هي يومين تهذي بكلمات لا معني لها، فقد كانت تنادي اسم الطفلة.. قتلة.. أنثى.. طفلة، ثم تتحدث عنه وكان ما زال يحتل من قلبها ذلك الحيز النابض، ما زال يؤرق صمت قلبها النائم على جراح لا تلتئم، هل ستلتئم جراح صوفيا؟

ها قد عادت إلى الحياة من جديد وبدأت تستعيد قوتها، أخبرتها ياسمين أن هناك رسالة بريدية وصلت إليها وهي مريضة إلى جانب

الزهور التي ملأت المكان، كان كثير من الرسائل من أصدقاء إيطاليين، وكذلك صديقاتها في المركز الإسلامي، رأت باقة صفراء من زهورها المفضلة تعرفها جيدًا، أسرعت تهبط من فراشها بأقدام ضعيفة، أخذت الزهور والرسالة ودخلت إلى مكتبها بينما ياسمين تعد لها طعام الغذاء، وهي تتحدث بلغة إيطالية مختلطة بكلمات عربية أن الكثير من الأصدقاء قد سألوا عنها بالتليفون، كانت هي مشغولة في فض الرسالة، نعم لم تكن تحلم، إنه هو، وقد كتب لها كلمة واحدة: "عودي حتى يعود الربيع".

بدأت صوفيا تتذكر، فهي لم تنس أبدًا حينما أخبرها في رسالة غامضة قصيرة، كانت عائدة من عملها منهكة القوى، بينما تفكر في رسالته الغريبة، فهو لم يتصل بها منذ أسبوعين على غير عادته، وسببت لها الرسالة انزعاجًا شديدًا، فقد كتب لها: "يجب أن نتحدث، سأكلمك غدًا" وكيف للغد أن يأتي وكل هذا الأرق يقتلها؟ حاولت الاتصال به ولم يرد كأمس، وقبل أمس الظنون تضرب ما تبقي من العقل في الحائط القلب يؤدي عمله في صمت في اليوم التالي، انتظرت طويلًا بعد أن طلبت إذن من العمل، أتاها صوته جافًا لم ينادها بنور عيني التي تحبها أو بأميرتي ولم يبدأ بأشتاق كعادته، صوته القاسي أحرق كل الفراشات الملونة والزهور والربيع، أحرق كل شيء ألقت بكل قوتها الهاتف من النافذة ليسقط في الحديقة التي تحولت أشجارها إلى وجوه تضحك بقسوة من تلك الساذجة لماذا يعاقبني؟ ماذا فعلت؟

كان واقفًا على شاطئ النهر يحتضن الذكريات، هنا كنا نمشي، تذكر حديثها المرح، وكلماتها المضحكة إذا أرادت الحديث بالعربية، قالت له مازحة:

"ربما ستتركني يومًا ما، وتتزوج بأخرى من وطنك!".

لم يفكر بل قال لها فورًا:

"أنت الحياة أنت الوطن! أنت لا تعرفيني أنا أموت لو تركتيني! أنت الدنيا".

وتذكر البرد القارس والأمطار المنهمرة، وكيف كانت تختبئ في معطفه، فكان الشتاء يصاب بنوبة ربيع تتركه زهورًا وعطورًا، هل ستسامحني على تركي لها وزواجي من امرأة أخرى؟ مر أمام محل الأيس كريم، ووقف حسيرًا، فقد تذكر كم كانت تعشق الأيس كريم عند تساقط الثلوج، شعر ببرودة شديدة كالتي يشعر بها منذ أن سافر بعيدًا، لم يعرف عنها شيئًا منذ سنوات على الرغم من أنه لم يترك المدينة، لقد غطى الجليد قلبه إلى أن أصبح جثة هامدة، كان إعلان موته يكتب كل يوم في وجه زوجته الأخرى (الجسد الميت بجواره).

ظن أنه يمكنه العودة إلى صوفيا التي لم تتزوج بعد الطلاق بينهما، والتزمت العمل الجماعي والدراسة إلى أن أصبحت من أكثر المحامين والمدافعين عن حقوق المرأة والطفل، قرر العودة يراوده الأمل من جديد في ربيع ينبت وسط شتائه الطويل.

ابتسمت صوفيا ابتسامة النهاية، وقامت بهدوء لتلقي رسالته في سلة المهملات وكان ردها كلمة واحدة: "دمت بعيدًا أيها الحزن!".

لم تنس وهي تحمل حقيبتها أن تضع زهرة من الزهور الصفراء بين صفحات الكتاب؛ لتُذكرها بأن للحزن أبوابًا، وأن عليها قبل أن تفتح الأبواب أن تحكم الاختيار، كانت ياسمين تنتظرها في التاكسي

الذي سيحملهما إلى المطار في رحلة جديدة من رحلات الحياة وقد تشابهت حكاياتهما.

* * *

١٦. مدينة بلا قلب

في الصباح صوفيا تخرج من منزلها على عجل، كانت الفتاة راقدة على سرير في غرفة كبيرة تمتلئ بأسرة بيضاء دون أن تشعر بأي نبض للحياة من حولها؛ بينما رائحة القهوة الممتزجة بتأوهات المرضى وتحيات الصباح تحمل الكثير والكثير لتحكيه عن الوجوه الصامتة، التي تحمل أرقاما، هي مجرد أرقام.

بدت الفتاة النائمة تتحسس الحياة تنبض داخلها شيئًا فشيئًا وجوه لا تعرف عنها شيئًا، حاولت التذكر، تجبر عقلها على العمل، تتمسك بالخيط الوحيد، ذلك الوجه في السرير المقابل،

رتبت صوفيا الزهور البيضاء التي أحضرتها في الإناء المخصص لذلك، وجلست بجوار الفتاة، كانت تهذي: يوم الهروب الكبير، الجميع يهرب بلا جدوى، إلى أين؟ علقت صوفيا بصوت حزين، نعم، صدقت يا صغيرتي!! في الحروب لن تجد للهروب سبيلًا لا فوق الأرض ولا تحتها، وستحرم حق الهروب، في الحروب لا مكان للأمان فهو الوحيد الذي تمكن من الهرب.

وضعت الفتاة يدها في حركة تلقائية على صدرها تتحسس القلب، هل هو مكانه أم أنها باعته كما أوضحت لها ذكرى مرعبة صفراء باهتة اللون تتردد عليها حولها كانت أشباه الملائكة التي ترفرف

هنا وهناك في حركة دائمة لخدمة تلك الأجساد المرقمة بعناية، صياح خافت ضعيف لأجساد تتألم، كانت الفتاة ما زالت في عالمها، هي في مشفى، أين؟ إلى أي البلاد ينتمي؟ لا تعرف، أصوات غير مفهومة؛ صوت واحد ميزته بصعوبة تعرفت على بعض الكلمات العربية أو اللهجة المصرية ذكرها بصوت أم كلثوم يغرد: "وقف الخلق ينظرون جميعًا كيف أبني قواعد المجد وحدي".

خفف الإحساس بغربتها ورائحة الدواء التي تتسرب في كل مكان بعد أن رأت نظرات السيدة ذات الشعر الأشقر واللهجة العربية المصرية وهي تسألها: "كيف حالك؟" ثم ما لبثت أن عادت ابتسامتها خائبة مع رائحة الزهور البيضاء محملة بدموع ساخنة تتجمع بين جفنيها!

صوفيا في المقعد بجانب الفتاة الهائمة في غيبوبة طويلة، تتحدث مع الممرضة للأسف، فليست المرة الأولى التي ترسل الحرب ضحاياها من الحالات الحرجة جدًا من غزة أو العراق للعلاج، وقد أحضرت الطائرة هاتين الحالتين بعد القصف الأخير، ومعهما حالات أخرى تم توزيعها على جميع المستشفيات بإيطاليا، كانت صوفيا تتولى أمر الوساطة الثقافية بينهم، الفتاة في السرير شاردة صامتة إلى أن بدأ الكلام ككتلة من حجر ثقيل مر الطعم، بدأت تهمهم، بدأ يشق صدرها صوت لا تذكره: "من أنا؟" سألت، تجمدت صوفيا في مكانها، وضعت الكتاب من يدها جانبًا؛ كانت تتصفح كتاب هيجل الذي يحكي عن السيد والعبد، إلا أن الفتاة أغلقت عينيها من جديد وقد

ظهرت علي وجهها ابتسامة ذابلة.

بدأ لها أنها في مدينة جميلة جمال وهمي لم تره من قبل، مدينة لا تعرفها، فهي بلا شمس، بلا قمر، بلا زهور، بلا رائحة الذكرى أو أعواد الزيتون، بلا صوت أم كلثوم، بلا عرس أو حنين أو حتي جنازة تمر.

صديقتنا تعيش في عالم غريب بين الموت والحياة حيث الوهم والحقيقة، رائع الشكل لكن لا شيء يمكن أن يصفه، النور يخبئ داخله كمًّا هائلًا من الظلام تمامًا كالنور الذي خلقنا به الله والذي أخفته ظلمة الشر؛ شر لا نشعر به فقط بل نراه عندما يشتد النور، أقصد نور المتفجرات التي تسقط لتضيء بقسوة ظلام الليل الذي أخفت الحرب معالمه.

حلم صغير أن تجد ملاذًا، أن تعيش في مدينة أخرى بلا حروب، حلم المكان البعيد عن الظلم وتذكرت صرخات والدتها وهي تخبئها هي وإخوتها من المتفجرات التي تسقط من السماء.

استيقظت الفتاة وبدأت تتحدث إلى صوفيا:

"هل قدري أن أولد على دقات الحروب وأجواء الانفجارات؟".

تذكرت وجه أمها وإخوتها، كانت وهي طفلة دائمًا ترتعد من أصوات الانفجارات، لم تسمع غيرها غناء للشر، لم يتغير شيء في شبابها، الأرض ما زالت تكتسي زيًا من النفاق؛ أسود بلون الحروب والظلم مثل الآلاف غيرها، قالت كلمتها وعاودتها غيبوبة الهذيان.

هي على كوكب الغرباء! هل هو القمر؟ أم كوكب بعيد لا تعرفه، أم أرض سرقت من خرائط الزمان، أرض تنكرت لحقيقتها كل الوجوه،

تذكرت ذلك الآلي المرتعد الذي طرق باب البيت الخالي بعد مقتل عائلتها وموت أحلامها معهم، كانت هي الوحيدة التي نجت بأعجوبة من مجزرة كبيرة ماتت فيها كل الأشجار الخضراء العفية المحيطة بالبيت احترقت، وما بقى منها منحنٍ بلا أوراق، كم من مرة تعلق جدي وجدتي بالأشجار واحتضناها، كم مرة وقفا بينها وبين يد المجرمين لم يعد شيء! لا تذكر إلا صوتًا ينذرهم بإخلاء البيت، وقبل أن تبحث عن والدتها لا شيء إلا صراخ إخوتها الصغار وانفجار ينزع الأرواح من الصدور.

كان الآلي مثيرًا للضحك أشبه كثيرًا برجال الفضاء كما صورتهم أفلام الكارتون في التليفزيون الصغير في بيت جدها قبل هدمه، طرق الباب ليقدم لها عرضًا، وكان بيده ورقة ملفوفة بجوار سلاحه الآلي عرض عليها أن يبيع لها مدينة في ذلك الكوكب الفضائي البعيد مقابل شيء واحد لا يريد غيره، لم ينتظر حتى تفكر في العرض ولم يتوقف كثيرًا، كانت في يأس يحتل الأعماق كما يحتل هو ساحات الفكر ولم يبق إلا الرحيل بعد أن بات كل شيء صامتًا إلا زئير الانفجارات، ولم يعد هناك إلا الهجرة وأن تترك قلبها مقابل المدينة البعيدة، هو يريد القلب، لم يتبق شيء، ولن يملكه رغم القتل والدمار، أتاها صوت الآلي المرتعد في هيئة شيطان ماكر يمنيها بالعالم الجديد، لن يكون هناك ألم، فقد تألمت بما يكفي، أومأت برأسها الهزيل على نباح كذبة كيف نعيش بدون الألم، الحب والألم، الألم والوطن رفيقان، كان عليها أن تسمح لهذا المخلوق الفضائي الغريب أن يخلع قلبها النازف من مكانه، وأن يبدله بقطعة من المعدن الأسود وبعض النقود نعم، إنه المال، حال توقيع العقد طلب منها أن تدخل داخل جسده

الحديدي الكبير من باب فتح في جانب صدره الأيسر حيث سيقوم باستبدال القلب وسيطير بها إلى مدينتها الجديدة تصنع أنه يحتضنها، وهو ينتزع قلبها شعرت بالألم بينما هو يشق صدرها ليخرج القلب الضعيف الغارق في الدماء، ويثبت مكانه قطعة من الحديد قاتمة اللون إذ بصرخة ضعيفة تخرج رغمًا عنها.

شعرت بيد تضغط بضعف على يدها، وكانت الممرضة قد أعطتها حقنة مهدئة بعد أن سمعتها تتحدث بكلام غير مفهوم وصرخات ضعيفة مكتومة، وهمست إلى صوفيا أنها تهلوس من أثر الحرارة الزائدة الناتجة عن بتر قدميها، بينما صوفيا تهمس باللغة العربية بين الحين والآخر حتى تهدأ الفتاة التي تتألم في فراشها.

والممرضة تسابق الزمن لإعطائها خافض الحرارة، ارتفع صوت الفتاة من جديد كانت رأسها مغطاة تمامًا بلفائف بيضاء.

طار بها الكائن الغريب حتى ألقاها بعيدًا، وقد ارتدى قناع إنسان جامد قاس، الآن تعرفت عليه هل هو العبد أم السيد؟ ومن الذي جعله السيد عليها؟ لم يمهلها وقتًا كافيًا لتحمل معها شيء غير الحقيبة الصغيرة على ظهرها وضعت فيها مفتاح البيت وبعض صور وخرائط جمعتها من تحت الحطام لشخص كانت تنتظر عودته طويلًا؟ لكنه لم يعد، ربما أنهت الحرب حياته في مكان ما!

وضعت معها مذكرات صغيرة كانت لوالدتها كُتب فيها:

"هنا كنت أركض بحنان على أرض الشوارع البيضاء الناصعة كبياض قلوب أهل بلدتي، هنا كنت أرقص خلف شبابيك ونوافذ كبيرة وبوابات ضخمة حيث لا تُغلق الأبواب أبدًا، هنا كانت تركض مشاعر

الحب بل وتسير بين الشوارع مع رائحة الخبز لتحتضننا، كان العشق وكان الفرح هنا كان الوطن، إلى أن أتى هؤلاء الذين يتخفون وراء قناع حديدي وذيول فضائية وترانيم، فقد المكان روحه التي سجنت بين الأسوار العالية ورحلت الحياة".

كان صوته المرتعد يثير سخرية ما تبقى من أطفال البلدة المختبئين بين الركام وأكوام الحجارة، فيقذفونه بالحجارة فيرد عليهم بحماقة الآلة وهم يتبادلون أحضان الوداع فهم يعرفون أنهم راحلون تحت الركام.

أتى الرحيل سريعًا، لم يمهلها الوقت فأخذت ثوبها الأسود بالأحمر المطرز بشرايين نساء البلدة وبطاقة هوية قديمة لا يظهر منها غير حروف وطن، أسرعت، انتزع منها الآلي القلب والذاكرة وما زالت الغارات الحمقاء تعبث بالحياة وتحول أطفال البلدة إلى أشلاء منتشرة في شوارع البلدة بعد أن تعبت أعينهم الخائفة من الدوران في السماء.

مدينة بلا قلب، لا يُرى منها إلا دخان أسود كالبركان يتصاعد ليطمس وجوه الأطفال مع صرخات الرعب تشق القلوب، وماذا يفيد الألم في قلوب ماتت من الألم؟ تتعانق الأرواح والأجساد في قبلة حياة أو وداع، وماذا تفيد قبلة الحياة في قلوب ماتت في انتظار الموت الذي يسير كالشبح يغرس أظفاره في القلوب، يقتل شعاع الشمس التي لا يجرؤ أحد على الخروج في ضوئها، فقد مات الجميع، ولم يبق من أسرتها غيرها والمفتاح والحلم؟

الآن هي في الفضاء الجديد ستحلق كيف تشاء؟ بدأ الحلم يعاودها شيئًا فشيئًا، هي الآن بلا اسم يحمل عطرًا كالذي كانت تحمله

من قبل، كان اسمها عودة هي الآن بلا وطن بلا حنين، هل تسمى الآن باسم آخر؟ لا تذكر، صرخت الفتاة بشدة وهي تبكي: "عودة، نعم، أنا عودة".

أعطتها صوفيا بعض الماء، تجرعت القليل بصعوبة وقد حضر الطبيب تبادل الحوار مع الممرضة وصوفيا:

"كيف حالهما اليوم؟".

"هي تهذي كثيرًا، أما الشاب الذي يرقد في السرير المقابل أحسن حالًا وإن كان يهذي ببعض الكلمات هو الآخر".

"إنهما في صراع كبير".

"ستهدأ الأمور بعد أيام، إنهما ظلا لوقت طويل تحت الركام؛ مما تسبب في الغيبوبة الطويلة، هما نجيا بأعجوبة".

غابت من جديد وتحسست الفتاة صدرها لتعرف إن كان بداخله شيء، لا شيء فقط المفتاح معلق على صدرها وكل من حولها مثلها بلا قلب، بلا ملابس، نظرت حولها؛ الحوائط مختلفة، اقتربت لتتحسسها فلم يكن لها رائحة كرائحة البيت القديم المختلطة بأشجارالزيتون التي لا تذكر سواها، فقد كان لاحتراقها رائحة لا تنسى، كانت تعلم أن الآلي أخذ بيتها شاءت أم أبت، عليها أن تتذكر ماذا فقدت فهي الآن بلا قلب في مدينة بلا قلب، وإن كان المفتاح ما زال معلقًا على صدرها.

الآلي المذعور يعيش في بيتها وقد أخذ كل شيء، وأحرق ما تبقى من أشجار الزيتون، أما هي فقد تبدل شكلها تمامًا فرأسها ليس إلا قناع حديدي كبير، جسدها يشبه تمامًا الآلي الذي أخذ قلبها، الجميع لهم نفس الشكل ونفس الحجم، المدينة الجديدة محاطة بأسوار عالية

كبيرة، لكنها أسوار من الوهم يكفيك لكي تعبرها أن تجد الشجاعة لفعل ذلك إن استطعت، المباني الوهمية الضخمة ليست إلا صورًا من الظل يكفي أن تتحرك لتعبر كل شيء في هذه المدينة التي تملك قلبًا مسروقًا تحت القوة الوهمية، لا شيء إلا وهم قوي مهيمن على كل شيء إلى أن حكم كل شيء.

وكان الآلي المرتعد يعطي أوامره في رعب شديد من حجارة الأطفال هو شعور القاتل بعدما أدرك وهم ما لديه، لن يخبرك أبدًا أنه يقتلك، فهو يعرف أنه بلا قلب، يكفي إيهامك بقوته التي لا يملكها، تلك القوة الممنوحة له من غرباء؛ عندها لن تبحث أبدًا عن قلبك حتى وإن كنت تعرف طريق الوصول إليه، لن تعرف كم ضاع من الزمن.

كانت هناك عيون ذلك الغريب ترقبها، تحفر على جسدها المعدني جراحًا خفيفة تحفر الغطاء عن تلك الذاكرة الضائعة داخلها كانت تذكرها بشخص ما انتظرت عودته كثيرًا.

آلة كبيرة تطحن الأحجار والمنازل، ماكينات تزأر بضجيج غريب، نظرات ذلك الغريب الذي يرمقها بين الحين والآخر؟

انتبهت إلى أن هناك ألمًا شديدًا في الجانب الأيسر من صدرها، وبقعة حمراء لا تعرف ما هي؟ ولأن الآلي وهو ينتزع قلبها لم يستطع انتزاع جذوره فعاد ينبض، إن القلوب لا تنتزع بل تنمو وتولد من جديد.

اقترب منها الغريب الذي يرمقها من بعيد، فقد كانت لديه نفس البقعة لكن أكبر كثيرًا مما لديها، حاول الكلام وقد أتى صوته يوقظ ألمها، صعق ذاكرتها بشيء ما هز عقلها بعنف، عادت شرائط الذكرى

المكدسة في عالم النسيان إلى العمل إنه هو!! ظنت أنه لن يعود؛ إنه أسير في السجن معها، "عودة" ناداها، رقصت الذكرى في عيونهم عند باب البيت الكبير كان يوم العرس، كانت النساء بملابس حمراء وسوداء طويلة نسجتها أيديهم بخيوط الصبر، كن يوزعن الحلوى، كان الجميع يرقص إنه حفل زفاف عودة – كان القلق يهيمن حتى على الزغاريد والورود، زاغت الأبصار وارتفع الصراخ عندما أتى الآليين الجبناء لياخذوه بعيدًا وقد اعتادوا أن يفسدوا كل شيء، وها هو قد وجدته إلا أنه لم يبقَ أحد في البلدة.

طلب منها أن تخفي صوت القلب الوليد في أعماقها حتى ينضج، الوقت يمضي كحلم مرير برائحة الرصاص المنصهر، شريط يطول يقصر، صور غريبة تمر برأسها الحديدي، ازداد تعلق الفتاة باليد التي تعانق يدها بقوة من جانب السرير، ومسح بحنان يده على يدها جمعت ذكرياتها المبعثرة لتتحسس وجهه واحتضنت حياتها المبتورة مثل قدميها في لحظات طويلة إنها ما زالت تحلم.

تذكرت أن الآلي الجبان أمرها ألا تتذكر وأن تنسى، بدأ الحركة دون أن تشعر بهم الآلات الوهمية، طرقا بشجاعة وصدر عار على الأبواب الحديدية الخائفة، دخلا إلى الغرفة الكبيرة جدًا وأمام الآلة العملاقة التي تصدر أصواتًا وهمية غريبة ترعب أجساد الأطفال قبل أن ترى الحياة، كان عليهما أن يفعلا شيئًا أن يعودا وأن يهجرا هذه المدينة بلا قلب، بدأا معًا الصراخ، تحولت الصرخة الأولى إلى اللون الأخضر، تعالت الصرخات تحولت إلى اللون الأحمر، ثم الأبيض، ثم الأسود، صرخات في كل مكان.

انفجارات صرخات، نقلتهما سيارة الإسعاف، كان يحتضنها رغم فقدان الوعي، وكانت صوفيا تنظر إلى عناق أيديهم طوال الوقت.

كان تقرير صوفيا كالآتي: فتاة وشاب في غيبوبة منذ عدة أشهر؛ الفتاة فقدت أقدامها وتهذي بكلمات غريبة مثل: المرتعد.. الرحيل.. العودة.. مدينة بلا قلب، أشلاء الأطفال تتناثر في الشوارع، الانفجارات الهائلة، مدينة بلا قلب، أعلن راديو الآلي المرتعد أنه أحبط اندلاع صراخًا هائلًا تسبب في انفجارات ضخمة وخسائر كبيرة في مدينة الآليين، أما أقدام الفتاة المبتورة فقد بدأت تنبت من جديد.

تمت

١٧. مركب مريم

كانت ترتعد من شدة البرد، ترقد على الأرض الخشبية للمركب الذي بدأ كروح تضيق كل يوم،

لم يهتم لأمرها أحد؛ فحمولة المركب ثقيلة ويجب التخلص من البعض حتى تتمكن المركب التي تتخاطفها الرياح من الوصول إلى شط آمن.

في الجانب الآخر كان هناك رجل كبير العمر يصارع الموت بقلب مطمئن هادئ، وإلى جانبه شخص آخر يهذي ببعض النصائح ويحذر ويتوعد.

كانت مريم مطمئنة رغم يقينها بأنه سيتم إلقائها لوحوش البحر، وأن الموت حتمًا قدرها، توسلت مريم كثيرًا لهم أن تركب معهم في رحلتهم الخطيرة ربما تساعدهم، لم يتقبلها أحد إلا الوالد العجوز، أخذ بيدها إلى المركب، كانت البلدة تنتفض تحت بركان يزأر معلنًا الموت، بعد قليل

صعدوا إلى المركب القديم الكبير أملًا أن يحملهم بعيدًا.

ابتسمت الرياح الماكرة فرحًا بالصيد الجديد، بدأت تداعبهم بضحكاتها المرعبة، تعالى الموج كلاعب السيرك الماهر في خلع

القلوب، كانت مريم تجلس في جانب المركب تقرأ تراتيلها؛ تراتيل السلام فتطمئن.

أتى صوت مرعب يأمر بتخفيف حمولة المركب وعليهم أن يختاروا من سيتم إلقاؤه طعامًا للأمواج الهائجة.

صمتت القلوب والحناجر الجميع يريد الحياة.

"هذه الفتاة ماذا تفعل هنا؟" سأل أحدهم.

أجاب البعض: "لا نعرف من أين أتت إلى المركب".

وهذا الشيخ: "يُقال إنه حكيم! لا مكان له بيننا".

نعم وافق الجميع.

ونظروا جميعًا بعيون بائسة إلى الشاب الجالس يقرأ كتابًا قديمًا قد تمكن من إخفاؤه بين ثيابه، كان معلم البلدة الذي طالما نصحهم بالالتفاف وتوخي الحذر من البركان، لم يسمعه أحد، ولا فائدة منه الآن.

امتدت الأيادي المتسخة تدفعهم بكل قوة إلى قاع البحر الثائر بابتسامة نقية ودمعة حزن هدأ البحر، وقد استعاد أمانته وقد فعل كل مافعل لإنقاذهم بعيدًا عن مركب الغارقين.

كانت ياسمين على دراجتها في صباح يوم الأحد (عطلة رسمية) عند مدخل البيت الكبير في السنتر تنتظر صوفيا، وقد أثار اهتمامها هذه القصة القصيرة في جريدة عامة تتحدث عن المهاجرين ومعاناتهم، وعندما أتت صوفيا نزلت ياسمين عن دراجتها لتسير على الأقدام بجانبها، ولم يكن الطقس سيئًا، بدت مهتمة كثيرًا بما تقرأه لها ياسمين، وقد سألتها من الذي كتب هذه الحكاية؟

دارت ياسمين بعينها في الجريدة قائلة كالعادة إنها رسالة غامضة مثل الكثير من الرسائل التي يقذفها البحر بعد كل وجبة يلتهمها من هؤلاء المكدسين في المراكب.

سيدة مجهولة ابتلعها البحر في حادث غرق مركب للاجئين الأسبوع الماضي، كتبت أيضًا أنها لم تذق الطعام منذ أيام، وأنها تموت كل لحظة ملقاة في جانب من السفينة، ليس فقط من الجوع بل من الخوف، فهي في رحلة الموت منذ شهور؛ منذ أن تركت وطنها في قلب أفريقيا طلبًا للعالم الجديد بعد أن باعت كل ما تملك وحملتها والدتها بكل ما وصلت إليه يدها.

لولا أنها كانت تحتفظ برسائلها في زجاجة بلاستيكية كما نصحها البعض ما استطعنا قراءتها، وختمت الجريدة المقال ببقايا الرسالة بخط يد الفتاة تتحدث إلى طفلها الذي تركته مع والدتها قائلة له:

"لا تحزن إذا لم ترني أبدًا فأنا في عالم جميل، وأن البحر الذي يبدو غاضبًا طوال الوقت هو حنون جدًا لا تخف منه!".

تذكرت صوفيا ذلك الكم من الرسائل، وكذلك بطاقات الهوية والأسماء المتشابهة التي يعثر عليها على الشاطئ، يقومون بجمع الصالح منها لقراءتها وعمل الإحصاءات الرسمية، وكثيرًا ما يلفظ البحر هذه الأرواح جثثًا متآكلة الملامح فهم مجرد أرقام في سجلات الهجرة غير الشرعية.

كانا قد وصلا إلى المركز الإسلامي، وتعالت ضحكاتهما وسط النساء ونسيا كل شيء على رائحة الشاي والحلوى.

* * *

١٨. خروج الروح

الساعة تدق معلنة الثامنة صباحًا، وصوت ماكينة القهوة المنعش يوحي بيوم رائع، فكما تقول صوفيا اليوم الجيد يُعرف من الصباح الجيد.

رن جرس التليفون؛ كانت جوفانا تنتظر في وسط الساحة القريبة، حملت حقيبتها وأغلقت الباب، جوفانا الراهبة الجميلة ذات العيون بنية اللون والابتسامة التي لا تفارقها.

كان عليهما زيارة السجن الكبير المتطرف بعيدًا عن المدينة، وكانت جوفانا في مهمة لتوزيع الهدايا على السجناء العرب بمناسبة العيد.

اصطحبتها صوفيا في سيارتها التي امتلأت بالكتب والحلوى، وصلا إلى السجن المرتفع وبدت من بعيد أسواره الشاهقة.

بعد تكملة الإجراءات الرسمية للدخول حان وقت اللقاء، الكثير والكثير من الشباب العرب داخل الغرف الضيقة، بدأت بالمرور عليهم وتوزيع الهدايا.

كان قابعًا في غرفته لا يحرك ساكنًا، حاولت الحديث معه إلا أن الحارس أخبرها بضرورة الابتعاد واتخاذ الحذر؛ لأنه عدواني وساءت حالته منذ عدة أيام.

فقررت العودة إليه بعد أن تنتهي هي وجوفانا من توزيع الكتب على النزلاء، من وسط سلة الكتب انتقت كتابًا، وبدأت جوفانا تقرأ وهي تترجم باللغة العربية قدر المستطاع، مر وقت دون أن يتغير شيء إلا أن نظرات الشاب تتبع يد صوفيا شيئًا فشيئًا وهي تحكي، وكأن الحياة بدأت تدب في أوصاله.

أيقنت أنها نجحت في خطتها، فقررت العودة مع جوفانا اليوم التالي، وقد أحضرت معها الكتاب وبعض الحلوى، استمرت في القراءة؛ بدت عيونه وكأنه ينتظرهما كل يوم، وابتسامات أمل تولد في تثاقل على الرغم من صمته، أنهت صوفيا الكتاب واختارت آخرًا، أصبح الشاب ينتظرهما كل يوم، أبدى الحراس والطبيب النفسي والأخصائي الاجتماعي ملاحظتهم على التغيرات الجديدة.

بدأ الشاب يتحدث وكأنه يصف شريطًا يمر أمامه:

كانت سعادتي حينما طرق أبي الباب وكنا ننتظره بلهفة شديدة؛ لقد تفوقت في إجازة الثانوية العامة، وعليَّ الالتحاق بالجامعة، نظرات أبي وأمي الغامضة المغموسة بحزن مختبئ تنبئ بأن القادم بين يدي الله وأن الحال معروف، لا مال، لا جامعة، كانت أحلامي عالية، أريد أن أهرب بها إلى السماء، كتب على الوجوه من حولي أنه في بلدي لا مستقبل لي، فأبي لا يملك شيئًا.

قررت الهجرة إلى أوروبا، توسل إليَّ أبي كثيرًا ألا أهاجر وأنه رأى لي حلمًا مخيفًا، طمأنته أني أحمل تربية كريمة، وأن لا يخاف عليَّ، العالم كله مخيف، وأن الخوف عبودية وسجن علينا أن نكسره يا أبي، حملتني أمي بوصاياها وحملني أبي بما وصلت إليه يديه من

مال، وأخذت طريقي إلى هنا عبر المراكب كمهاجر غير شرعي، ظللت لأشهر أنام حيث تأخذني قدمي بحثًا عن عمل، وقد كنت أعد نفسي من القلة المحظوظة! فالمركب لم تغرق، ولم يغرقها أحد.

بدأت أشعر باليأس، كانت دعوات أبي وأمي تهدهد عليَّ ليلا وأنا مختبئ من الأمطار داخل الكيس الكبير الذي وجدته في الشارع فحملته معي صديقًا وبيتًا، ربما كان لواحد من أمثالي وضعه في مكان وضل عنه بعد ذلك، ربما مات من البرد أو ربما...، أخذتني الظنون وبدأ عقلي يعمل، إن الكثير من أمثالي أحياء، لكن كيف رغم نفس الظروف السيئة؟ لم يكن صعبًا أن أعرف بل تكفي قراءة واحدة للشوارع ليلًا لينكشف كل شيء؛ إنهم عصابات الاتجار في المخدرات في كل مكان، يزج الجوع وحياة التشرد بالشباب من أمثالي لهذا العمل، كنت صغيرًا والشجارات اليومية بينهم غالبًا ما تخلف القتلى، أو الجرحى، أو من ينتقل إلى السجن البعيد، ويتلوها خبر غامض في الجرائد، والأكثر أمانًا هم أصحاب السيارات الفارهة الذين يلقون إلى البعض بأكياس من المخدرات يتم توزيعها على من هم مثلي حيث نخبئها في صناديق القمامة وتحت المقاعد العامة وأينما تصل له أيدينا.

بدأت العمل معهم، اصطحبني أحد الشباب أصغر من عمري لكن كانت طريقته في الكلام تنم عن دروس وخبرة كبيرة، عرفت بعدها أنه أُلقي به على سطح مركب وهو في العاشرة من العمر، وقد تم إيداعه في ملاجئ الإيواء حيث تم علاجه مما تعرض له في رحلة الموت؛ فقد تعرض للاغتصاب كثيرًا وهو الآن غريب جدًا، فربما تحسبه فتاة من

نعومة صوته وحركاته المريبة، وقد حياني بسيجارة ذات رائحة نفاذة قائلًا:

"أهلًا بك إلى الحياة! لماذا لا تترك هذا الكيس جانبًا ربما يحتاجه شخص آخر يلوذ داخله من آلام البرد؟".

راودني الشك أن هذا الكيس يحمل الكثير من الحكايات، كنت أتصنع النسيان وأضع السماعات في اذني حتى لا أسمع توسلات أبي، كلماته عن الحلم ما زالت تزعجني، فتأتي دعوات أمي لتهدئ من روعي، وتمسح عني الدموع الساقطة كل يوم بعد الانتهاء من العمل، بعد الانتهاء من الشرب، بعد أن أصبح لي شكل إنسان يرتدي السلاسل الذهبية، ويلبس الماركات، وكلما راودتني أحلامي أحرقها بسيجارة وزجاجة من البيرة، فتهرب منى، تناسيت والدي وعائلتي وقد أوهمتهم أني التحقت بالجامعة، وأني أعمل أيضًا، وأرسلت لهما بعض المال.

عرفت فتاة ضئيلة الجسم ذات شعر مليء بالضفائر الأفريقية، شديدة نحافة الوجه، وعيون سماوية من أصول يونانية، كانت تأتي للتسلية، وكان يبدو عليها الثراء والرفاهية الشديدة، تدخن بشراهة، أنظر لها فتبادلني نفس النظرات، لم أشعر أبدًا بمسافات أو حواجز بسبب جراءتها الشديدة، كانت تسهر بيننا طوال الليل، وتضع سيارتها الفخمة على جانب الطريق، حذرني البعض من الاقتراب منها لم أكن أعرف لِمَ؟

دخلت وراءها الحمام يومًا ما وكانت شبه سكيرة:

"كيف حالك؟".

أجابتني: "أنا بخير جدًا".

"هل هذه المفاتيح لك؟".

أجابت فورًا: "نعم انها لسيارتي، هل تعزمني على شيء؟".

"تفضلي".

بدأنا نرقص على صوت الموسيقى العالى.

"هل تحبني؟" سألتني.

"نعم، أحبك منذ رأيتك".

"هل تتزوجني؟" أجبتها فورًا بنعم.

كانت تحت تأثير المخدر تغني وترقص، كنت أيضًا مثلها، جُبنا معًا سنتر المدينة حيث الموسيقى في كل مكان، والرسامين المتجولين، وجود ساحر لم يعننا منه إلا العالم الوهمي الذي حملتنا إليه المخدرات القوية.

تسارعت الأحداث، لم أعرف كيف، وجدتني معها في منزلها وهي تضحك بهستيريا، تناديني بزوجي العزيز، كنت أنا الآخر تحت تأثير المخدر.

أفقت في الصباح لأجدها تنام بجواري، وما أن استيقظت حتى بدأت تنظر إليَّ، تبدل وجهها فجأة وقالت لي أن على أن أرحل فورًا وبسرعة، وظلت تصرخ، وأنا مكاني لا أفهم شيئًا.

فتح الباب ثلاثة من الرجال، يبدو عليهم الثراء، وبدأ أحدهم وهو أكبرهم عمرًا يتحدث إليها بلغة أخرى بينما هي تبكي وتصرخ، كانت زوجة الرجل اليوناني! لم أفهم شيئًا، وقد أشار إلى الرجلين

أن يحملاني، ووجدت نفسي في سيارة كبيرة مثل تلك التي تأتي إلى زملائي بالمخدر الذي نبيعه، قيدوني في مكان لا أعرفه، وبعد عدة أيام أعطوني ملابس وحقيبة وأطلقوا سراحي.

ما أن خرجت من باب المنزل حتى كان رجال الشرطة حولي وحملوني وكل ما معي إلى هناك ولم أعرف غير أني متهم في قتل سيدة يونانية سكيرة.

لم أخرج منذ عامين فقد حكم عليَّ القاضي دون أن أنبس بكلمة، فأنا لا أتحدث الإيطالية جيدًا؛ فقط القليل من الكلمات، وها أنا بين الحوائط يقتلني الحزن على عائلتي التي فقدت الاتصال بي منذ عامين، ماذا يفكر أبي الآن؟ فهل عرف ما يحدث لي في رؤياه؟ وهل أمي ما زالت تبكي؟ وهل تزوجت أختي الصغرى؟ هل مات جدي؟ وهل جدتي ما زالت تسأل عني؟ رفضت أن يعرفوا عني أي شيء فأنا سجين، سجين مدى الحياة، سجين على أبواب حياة لم أعشها، كيف لي الهرب؟ هل هذه هي الجنة جنة آدم؟

انهار الشاب وحاولت صوفيا والحارس تهدئته، بينما جوفانا تصلي في ركن الغرفة.

من بين حوائط السجن أكتب لك هذا الشكر، فلولاكما أنت وجوفانا لاحتضرت مع أحلامي داخل السجن، وهذا النجاح أهديه لكما، كانت صوفيا بمساعدة المحامي قد استطاعا تسجيل الشاب في كلية الحقوق وها هو الآن يهديها نجاحًا بعد نجاح، وقد أعادت مع المحامي الدعوة القضائية والبحث حول جريمة لم يرتكبها وهم في انتظار الحكم النهائي.

كانت رسالته على حوائط السجن:

"لمن اقنعوني أن العيش في وطني سجن هل ذقتم سجن الغرب؟ لا تجعل أحلامك الهروب من جنة آدم بل الهروب إليها.

❊ ❊ ❊

١٩. علاقات قاتلة - في مقابر الحب

في الصباح كانت صوفيا تتناول قهوتها، الجو غائم جدًا، يبدو أن الشمس ترفض الخروج لعرسها، بمناسبة العرس تذكرت ذلك الصوت المختنق أمس، قالت لي بعض الكلمات القليلة:

"أنا تحملت من الألم ما لا طاقة لبشر به".

ماذا تقصد هذه الشابة الجميلة التي قابلتني أمس وقد طلبت رقم تليفوني؟ اتصلت بها وجاءني صوتها المحمل بسحب من الحزن:

"أوكيه، نلتقي في الثانية ظهرًا".

سألتها إذا كانت تعرف المقهي الصغير بجانب ساحة سان ماركو (موكا كافيه)[١]؟

أجابت: "نعم".

"إذن نلتقي هناك".

أعددت قلبي للاستماع لها، كم كانت حزينة، فتاة في الثلاثين من العمر تحمل شعرًا بنيًا طويلًا، وعيونًا سوداء واسعة، تحمل ملامح شمال أفريقيا.

---

(١) تغير نطق الكلمات العربية مخا قهوة إلـى موكا كافيه تعود إلى مدينة مخا اليمنية حيث يقال: إنها أول مدينة عرفت بذور القهوة.

"هل أنت من أصول أمازيغية؟".

أجابتني: "نعم، لقد أتممت دراستي بجامعة سوسة، وعملت في شركة طيران كبيرة لسنتين، كانت تونس الخضراء جنة واسعة أركض فيها حيث أشاء، أحببته حبًا لا يعلمه إلا الله، نعم كنت أعيش في الجنة إلى أن زوجوني برجل يكبرني بأضعاف عمري من أجل المال وأرسلوني له بباريس؛ زوجوه بابنة عمه حتى لا يخرج المال خارج العائلة، أخرجونا من جنة آدم إلى دروب الشقاء،

إلى مقابر الحب حيث تلتقي أرواحنا في علاقات قاتلة.

حملتني طائرة مخيفة ضيقة وأول مرة أشعر بدوار الطائرة على الرغم من أني كنت أتهادى وأرقص مع أجنحتها كطائرأبيض كبير، باريس حلم كل من يسمع عنها استقبلتها بآلام في المعدة وقيء شديد ودوار لم تذهبه تهدئة زميلاتي من مضيفات الشركة، وقد أعددن لي احتفالًا كبيرًا على الطائرة وسط تصفيق المسافرين وتهنئة طاقم الطائرة، وقد أهدوني طائرة صغيرة لتذكرني بفترة عملي معهن، وحملنها بالتهاني والأدعية الجميلة بالسعادة.

أي سعادة ترجون لي؟ أي كذب أراه في وجوه كل من حولي؟ الجميع يعرف أنه تم بيعي من قبل عائلتي إلى ذلك الثري في باريس ولم أفعل شيئًا، بل انطفأت أنوار الحب في قلبي وأنا أراقب العرس البعيد، وخفضت رأسي وأنا أرتدي شبكة أحسها من الحديد.

ما أن حطت قدمي أرض المطار سقطت مغشيًا عليَّ قبل أن أعرف من قام بشرائي، مرت الأيام وأنا مستسلمة أتعجب من ضعفي! من أين هطلت علي أمطار الضعف؟ إنه يجمدني بجليده، وكنت أظن

أني من أقوى النساء، نادوني بالطائر، السفيرة عزيزة، أحيانًا بالقائدة، كلمات فقط، كلمات ينبوع الضعف، تولد به كل أنثى يلقون بذوره داخلنا مع الرضاعة فتنمو معنا.

هو لم يحارب من أجلي، لم يتمسك بي وإلا لهربت معه حتى لو كنت في الجنة، استسلم لجبنه، كيف بي أن أقاتل من أجل حب جبان، وطن جبان كنت أظنه يملكني، أقسم جهد الإيمان أني ملكة وأني له، وقد صدقته لم أعرف الكذب من الحقيقة؟ أقسم أنه يراني في أحلامه بثوب أبيض، يقبل يدي أيها الكاذب لماذا تخليت عني؟ كنت وطني جنتي، انتابتها نوبة بكاء، هو من علمني الضعف.

أخذت صوفيا تهدئ من روعها.. إلى أن هدأت وبدت تشرب الكابتشينو الساخن كدموعها:

"وماذا بعد ذلك؟" سألتها صوفيا.

لقد أيقنت أني أعيش في مجتمع يدمر ويخنق الحب الحلال، وعندما يستحيل الحب بسبب ثقافة عمياء وإرث عقيم يُستباح كل شيء، مجتمع بلا حب، مجتمع انتقامي مجتمع يفشل كل شيء. سيدتي لقد حرمونا من الحب؛ لأنهم أيضًا محرومون منه من أجل المال! من أجل العائلة! حرمونا من الطلاق خوفًا من بعضهم البعض، وهذا ما أيقنته بعد ذلك أننا نعيش في مجتمع بلا حب.

حيث يسكن الحب القبور وقد مضت ٥ سنوات في بيت ذلك الشخص لا أذكر اسمه أو ملامحه، فهو فقط زوج قضى حياته في فرنسا لكنه حمل معه سجنه كالإرث، قرر ألا يعطيني حريتي رغم أني ميتة أعيش معه بلا قلب بلا حياة، فضل العيش كزوج ميت على أن يسمح لي

بالحياة، تركت البيت ومعي طفلة صغيرة، لجأت لإحدى الصديقات، ساعدني زوجها في الحصول على محامي لطلب الطلاق، بدا لي أن زوج صديقتي في عداد الموتى هو الآخر، كان شخص ضاحكًا طوال الوقت، له أسلوب سحري في تحويل كل ما يقابله من مشكلات إلى سخرية، بدأ يرمقني بنظرات غريبة إلا أني لم أهتم، وكنت أخرج دائمًا معها إلا أنها في يوم قد نسيت شيئًا في سيارتها، فعادت لتحضره؛ وجد هو الفرصة ملائمة ليبث لي حبه، وقد تبدل وجهه إلى وجه كريه عندما رأيته سألت نفسي كم وجه لديه؟ أبدى رغبته في الزواج مني، وعندما سألته: "وزوجتك"؟

قال: "لا لن تعرف شيئًا، وإذا عرفت ستكون أمام الأمر الواقع هي لا تعرف الحب".

"وماذا عن الطلاق؟" سألته: "وماذا عني فأنا لم أحصل على أوراق طلاق قانونية بعد؟".

أجاب أنه يمكننا الزواج عرفي أو بدون أوراق، لم أتمالك نفسي وصرت أصرخ في وجهه، وقد دخلت هي من الباب كأن شيئا لم يحدث.

كنت واثقة أنها سمعت كل شيء، بل ربما ادعت أنها نسيت باب السيارة مفتوحًا حتى تعرف ما سيحدث، ألم أقل لك إننا نعيش في وقت حرم فيه الحب الحلال؟ ألم أقل لك إننا نعيش في واقع الأقنعة؛ فهي لم تبدِ اهتمامًا بالأمر رغم أنها تعرف أن زوجها لا يحبها! بدأت تلح على في العودة إلى بيتي وزوجي الذي كان ينتظرني بالأكفان، حاولت بكل طريقة الطلاق منه وكان رده قاطعًا:

"ليس عندنا طلاق في العائلة".

"وابنتك أين هي؟" سألتها.

ازداد وجهها شحوبًا كوجه ميت: "لم تحتمل الطفلة حالتي النفسية والعصبية، كانت بحاجة إلى رعاية خاصة، ماتت في هدوء حزينة كالحب الذي انسحبت روحه من عالمنا وأصبح مستحيلًا".

بنظرة حزينة سألتها: "وهل حصلتِ على الطلاق بعد ذلك؟".

"وهل تعتقدين؟ طبعًا لا".

قضيت فترة في مصحة نفسية للعلاج وساءت حالتي أكثر حتى إني حاولت الانتحار أكثر من مرة، إلى أن وصلتني قبلة الحياة؛ كانت طبيبة نفسية فهمت معاناتي، ساعدتني بكل قوتها ربما كانت تحارب من أجل نفسها، فقد عرفت أنها الأخرى عانت كثيرًا وبفضلها أعطاني القاضي حكمًا بالانفصال بالحياة، وساعدتني حتى أتيت إلى هنا، أحاول أن أحيا من جديد، لم أحاول العودة إلى وطني ولن أعود إلى وطن دفن الحب وحوله إلى مستحيل.

أنهت فنجانها وودعتني على وعد باللقاء وأنا أنظر إلى معصمي وأفركه بشدة، وقد بدا لي إثر قديم لقيد من حديد يؤلمني، وصوت غناء شهير في أذني يقول: "أعطني حريتي أطلق يديا".

* * *

٢٠. بدون إزعاج

في السجن فتاة صغيرة العمر تحمل طفلًا رضيعًا بين ذراعيها وقد طلبت من إدارة السجن أن تراني.

ذهبت إليها ومعي جوفانا، حملت جوفانا الطفل وأخذت تداعبه وكان اسمه آدم، وهو اسم جميل أبديت الإعجاب به، كانت الفتاة تعرف بعض الجمل العربية، وقد أخبرتني أنها اختارت هذا الاسم لأنه موجود في كل اللغات وخاصة العربية.

كانت في العشرين من العمر، فورًا حين تراها تعرف أنها من جنوب أمريكا، كانت برازيلية تحمل لون الشيكولاتة الرائع، ولها شعر مبعثر في ضفائر صغيرة معقدة، بدأت فورًا الحديث عن الإسلام، وأنها تريد أن تكون مسلمة.

سألتها: "وهل قرأتِ شيئًا عن الإسلام؟".

أجابت مؤكدة أنها تقرأ منذ ثلاثة سنوات، وأنها على يقين كامل بأنها مسلمة، بدأت تحكي عن نفسها وأنا وجوفانا في صمت شديد.

رأيت الدنيا في بيت كل من فيه يتحدثون عن الطب، أذهب إلى المدرسة في الصباح، وأجلس بين الأطفال، وألهو معهم وهم يجذبون ضفائر شعري الغريب عنهم، لم يكن شكلي يشبههم، بل عرفت أني

مختلفة من رسوماتهم، فعندما تطلب المدرسة أن نبدأ في الرسم يرسم الأطفال وأجد نفسي بينهم وحيدة بلون الشيكولاتة الداكنة، وشعر كثير التجاعيد، من هنا عرفت أني مختلفة، تحدثت إلى والدتي الطبيبة ووالدي الطبيب عن رسومات الأطفال، فأخبروني بالحقيقة؛ لقد تبنوني من دار للأيتام خلال إحدي رحلاتهما مع القوافل الطبية.

لم أكن أفهم، بدأت أفهم بعد أن تقدمت في العمر أني لقيطة؛ لذلك لم تكن لي عيون مثل عيون والدي الزرقاء، أو شعر ذهبي مثل أمي.

لم أهتم كثيرًا، بل بين الحين والحين تخرج من داخلي رغبة دفينة أن أعرف من هم أهلي الحقيقيين، وبدأ السؤال يكبر معي؛ أحفظه مع اسمي البرازيلي الغريب الذي قيل لي: إنه اسمي الحقيقي "تعيسة"، قيل لي: إنه اسم أميرة عربية.

حصلت على التعليم الثانوي، ازدادت الخلافات بيني وبين والديَّ؛ كانا يتهمانني بالغرابة، وأني أتعمد إزعاجهم على الرغم مما قدما لي، كان يراودني حلم واحد أن أرى والدي الحقيقيين.

بدأت أحاسيس الغربة تزداد داخلي، أصبحت في عزلة تامة من أهلي وفي المدرسة، قررت ترك المدرسة، وكان هدفي أن أجد عملًا أستقل به بعيدًا عن والديَّ حتى أتمكن من السفر إلى البرازيل للبحث عن أهلي، وقد أخذت كل وثائق التبني من غرفة والدي دون أن يشعر.

وجدت عملًا في فندق صغير، وكان زميلي شابًا عربيًا، أحببته كثيرًا لكن عائلته رفضتني لأني لقيطة.

أخيرًا استطعت أن أشتري تذكرة سفر إلى بلدي الذي لم أره أبدًا، بلدي الذي ألقاني بعيدًا.

نزلت هناك في ذلك البلد الرائع أبحث في البلدة التي كتب أنهما وجداني فيها، أبحث طوال الوقت، تعرفت إلى أحد الشباب في القرية، وقد مد لي يد المساعدة، فأنا لا أتحدث لغتهم بل أتحدث الإيطالية، كان يعرف الإنجليزية وبعض الإيطالية.

استضافني الشاب في منزل عائلته، وبدأوا في مساعدتي، كانت رحلة البحث طويلة وشاقة إلى أن بدأت بعض خيوط الأمل تتضح، هناك في أطراف القرية عائلة تحمل اسم والدتي، الكثير من الأطفال شبه عراة في كل مكان، الفقر يزرع زهوره أينما نظرت، لن أهتم، كنت أريد أن أراها،

فتح لي الباب طفل صغير، اهتز قلبي الصغير الكبير، كانت لحظات تشبه ولادة الحياة من قلب الموت، كنت أولد من جديد.

التفاصيل حولي، الكثير من الأطفال، وكان البيت الخشبي فقيرًا جدًا، وعلى الطاولة الخشبية القديمة كأس ماء لم يرق لي شكله لكني شربت، أتت سيدة تشبه ملامحي إلا أن وجهها كان قاسيًا، لا يخبرني بأي شيء، كان وجه امرأة ميتة سألتني من أكون وماذا أريد؟

أخرجت لها ما معي من أوراق وأنا صامتة أنظر فقط إلى عينها كي أكتشف الأمومة التي أبحث عنها.

"آسفة لست أنا والدتك!".

تبادلنا حوارًا صامتًا بلا كلمات رغم صراخ الأطفال وجريهم من حولي، تهيأ لي أن روحها تنسلخ منها وتحتضنني، وأن يدها تربت على

شعري الذي تحمله على رأسها، احتضنتني في حضن كبير دافئ، ألقت عليَّ دموع ساخنة تتساقط على وجهي، وهي أيضًا تخفي دمعاتها.

"عليكِ الذهاب فعندي الكثير من العمل" أتاني صوتها يأمرني بالذهاب.

"كنت أريد فقط احتضانك قبل أن أذهب" لم تجب بل حملت الطفل الذي يصرخ أمامها.

دخل رجل لم أر ملامحه، فقد كانت عيناي غارقة في الدموع، انصرفت أبكي وقد رأيت وجوه تصرخ بي في كل مكان.

عدت إلى إيطاليا وقد نفذ القليل الذي أملك في طريق العودة وأنا أجتر آلامي؛ اغتصبني أحدهم، لم أعرف من، إلا أني رأيت وجه قاضي يحكم عليَّ بقضاء سنتين في السجن؛ لأنى أحدثت تلفًا كبيرًا على الطائرة، واعتديت على رجل شرطة حال نزولي من الطائرة.

ولد هذا الطفل آدم في السجن، إنه ابن وطني الذي ألقاني، لفظني بلا أبوين ألقاه أيضًا يتيمًا، نصارع الحياة بين أسوار السجن.

نسيت أن أخبرك أن والداي بالتبني قد تبرأا مني هم أيضًا لما أحدثت لهم من إزعاج.

* * *

٢١. الحقيبتان

سلمت الحقيبة للعاملة في المطار، واتجهت إلى البار لتأخذ قهوة ساخنة بدون سكر، كانت بحاجة إلى أن تستيقظ، تفيق من هذا الكابوس، فقد مرت حياتها سريعًا لا تعرف كيف! وضعت القهوة أمامها وجلست في صالة الانتظار التي لم تزدحم بعد، في الأريكة المقابلة كان هناك شخص جالس ينظر في تليفونه وقد بدا عصبيًا إلى حد ما.

انهمكت في مقعدها وغابت عن الصالة التي تزداد ازدحامًا شيئًا فشيئًا، فقد أرهقت جدًا ليلة أمس وهي تودع حياتها، تودع ٤٠ عامًا من الغربة بدأتها بحقيبة كبيرة زرقاء بلون السماء، كانت تعشق لون السماء، انفتح باب الطائرة وهي تركض على عجل كطائر صغير يخرج من قفصه لأول مرة، وها هي تجلس في نفس المكان الذي جلست فيه كثيرًا، كم من الحقائب اشترت، وها هي أمام نفس الباب وكانت حقيبتها هذه سوداء اللون أصغر قليلًا من الحقائب السابقة، جمعت فيها من كل ما يذكرها بأعوامها بحياتها، وخاصة صور ابنها الوحيد الذي رفض العودة معها واعتذر لها.

لم تلمه أبدًا على رفضه، بل كانت متفهمة جدًا؛ إنه في الأرض التي وُلد عليها، وهي عائدة إلى الأرض التي وُلدت عليها.

أخرجت ألبوم الصور الكبير من حقيبة بجوارها، وبدأت تقرأ حياتها بينما الرجل الجالس مقابلًا لها ثابتًا بلا حراك يدخن سيجارة كبيرة.

كانت شابة في العشرين في هذه الصورة، هذه هي فرشها وألوانها، إنها الصديق الوحيد الذي يرحل معها أينما ذهبت بل هم جزء منها؛ هنا أول دخول لها لأكاديمية الفنون الكبيرة في ساحة سان ماركو، هنا أتقنت فن الرسم، هنا أول عشاء لها معه؛ الرسام الشاب الذي ينبع الحب من عينيه، هنا أول عشاء لهما مع العائلة، وكانت تشم رائحة البيتزا الساحرة التي أكلاها معًا، هنا خاتم الخطوبة في حفل صغير بين عائلته الإيطالية، هنا حفل زواج بين عائلتها العربية، أتاها وجه والدتها ووالدها من بعيد، عيون والدتها تلاحقها من بين ألبوم الصور تحتضنها، رأت ابتسامتها، كم مر من زمن لم ترهم، أخذت تبكي، لم تقاوم دموعها لقد رحلوا عنها وهي في غربتها منذ زمن طويل، خرج صوت بكاؤها مكتومًا مختنقًا، كم أحتاج إليكم.

ذهبت إلى البار تشتري زجاجة مياه بينما الرجل الجالس أمامها يحدث نفسه، فهو معتاد على ذلك منذ زمن يتحدث إلى نفسه بين الحين والآخر حتى صار يُلقب بالمجنون، كان شديد العصبية يتشاجر مع كل ما يحيط به، أتاه صوت ابنته وهي تطلب منه العودة إلى بلده، كانت زوجته الإيطالية قد طلبت الطلاق منذ زمن بعد أن ساءت أحواله المادية، وحجزت المحكمة على مطعمه الكبير لسداد ديونه.

لم يعد لديه شيء حتى ابنته وزوجها رفضا أن يعطياه شيئًا، ينتقل منذ فترة من صديق إلى آخر إلى المشفى للعلاج من ضغط الدم، لم

يعد يرغب به أحد بعد إفلاسه خاصة لعصبيته الشديد، لم يعد أمامه شيء إلا الحقيبة وتذكرة طائرة ذهاب فقط؛ أي لم يبقَ أمامه إلا العودة، اضطر أن يقبلها من ابنته، استسلم للأمر وقرر العودة من حيث أتى إلا أن هناك شيئًا لا يعرفه يؤرقه هل ما زال له مكان هناك؟

عادت هي وقد اشترت زجاجة الماء، كانت أنيقة جدًا رغم آثار العمر، حملت الألبوم وقد ابتسمت لصورة زفافها رائعة الجمال، تذكرت الزهور البيضاء، وها هي زهور أخرى تحيط بوجه ابنها كالملاك الصغير، وعدها أن يذهب لزيارتها كل عام، أقنعت نفسها أنه سيفعل، ها هو أول يوم يذهب إلى المدرسة بملابس أنيقة جميلة وهي ووالده يعانقانه.

وصلت إلى صورة أخرى وشيئًا فشيئًا يختفي زوجها من الصور إلى أن وصلت إلى صورتها وحيدة؛ لم ترد هي الطلاق إلا أنه أصر، وقد انتقل فعلًا للعيش مع سيدة أخرى، شربت بعض الماء وقد شعرت بطعم المرارة الذي لم يختفِ أبدًا.

مرت السنوات، ها هي صورة ابنها مع أبيه وزوجة أبيه الجديدة.

هما معه في صالة الجامعة لحضور حفل تخرجه من كلية الطب، قطع عليها شريط الذكريات تليفون من صوفيا تطمئن عليها وتسأل:

"أي ميعاد تقلع الطائرة إلى لبنان؟".

أجابت: "باقي القليل، سأتصل بك عند وصولي، نعم، نلتقي قريبًا هناك".

بينما هي تقرأ الذكريات الحبيسة بين صفحات ألبوم الصور، أتى صوت موظفة المطار تعلن قيام الرحلة إلى مصر، دفع الرجل العصبي الحقيبة أمامه ورحل إلى الصف الطويل.

بينما هي تنتظر أتى صوت الإعلان عن طائرة بيروت، أغلقت الألبوم وانسحبت روحها ثقيلة ثقيلة إلى أعماقها تجر أقدامها إلى أبواب الطائرة.

* * *

٢٢. عودة أنثى

عائدة أنا من الماضي البعيد

أحمل في صدري ذكريات وقفص من حديد

وبعض الثياب من خزانة جدتي أخفيها كما أوصتني ليوم العيد

أحكموا فوق عقلي القيود، ولفوا قلبي بضمادات بيضاء تشبه ملابس الشهيد

أوصوني أن يصبح السيد وملابس جدتي وقيدي هو حلمي الوحيد

أيا قلبي ألا تستحي من الآلام؟ ألم تعييك

أنامل آدم العابثة بين الأوردة والشرايين

التمرد البرتقالي يولد، أصرخ يا قلبي الثائر من جديد

ما زال يمكننا الهروب إلى العالم البعيد

فجنة آدم لم تكن يومًا أمان

كانت رائحة القهوة الإيطالية الإسبرسو تصيح في غرفتي معلنة قدوم الصباح، صباح ككل صباح حيث درجة الحرارة تقارب درجة التجمد، وكل شي كما هو معتاد، صوت الطيور تصرخ من البرد فوق سطح غرفتي، وهي عادة الطيور في البلاد الباردة أن تسكن قريبًا من

فتحة المدفأة طوال فترة الشتاء، دفعني الفضول يومًا أن أصعد من البلكونة حتى أرى هذه العائلة التي تسكن مدفأتي، ولكنه رآني وحذرني أن السطح مائل، وهكذا العمارة الأوروبية القديمة رائعة الطراز، وكان الصعود لشخص غير متخصص ربما يعني الموت.

ولذلك لم أفكر أبدًا أن أصعد إلى هناك، وبات حلم من أحلامي رؤية عائلة الحمائم التي تسكن بجوار مدفأتي، وكنت معتادة على وضع طبق من حبوب الأرز لإطعامهم.

ولأني لم أذهب من قبل إلى عرافة ممن يقرأون الكف لم أعرف أبدًا ما يخبئه لي الجليد، كل شيء هنا يتجمد بالتدريج حتى قلبي المسكين.

رن جرس التليفون بينما أحتسي كوبًا لذيذًا من الكابتشينو، وصوت فيروز تغني: "خدني على بلادي" رغم أني لا أفهم العربية إلا أني أحب صوتها، وكانت صديقتي الأمريكية الجميلة ذات العيون الواسعة شديدة الخضار تناديني أن أصحبها إلى المركز الإسلامي كما اتفقنا، ورغم برد الشتاء القارس إلا أن سوق "سانتا أمبروجو" العتيق لا يخلو أبدًا من الناس والباعة الجائلين من المهاجرين الأفارقة والإيطاليين، فكنا نتنزه بينما يقدمون لنا بعض الأساور الأفريقية، والمنتجات التي تحمل عبق تراثهم مثل البخور والمسابح الطويلة من خشب البامبو والعقود غريبة الشكل.

وملابس تقليدية ملونة تنثر البهجة والسرور الذي يخفي وراءه عيون شديدة البياض ينبع منها حزن مختبئ؛ حفرته المعاناة والغربة على وجوه بعضهم، وكأنك تقرأ في لوحة من الألم وتطير إلى السطح

ذكرى قارب صغير تتقاذفه الأمواج، ولم ينس بعضهم الموت الذي رافقه طوال رحلة الهجرة من أفريقيا السوداء حتى ليبيا عبر الصحاري والمخاطر، فمن نجا منهم ألقى بنفسه من جديد في قوارب الموت المرسومة على عيونهم! لن أتحدث عنها فوجوههم وأعينهم تحكي كل شيء.

اشتريت أعواد البخور التي تذكرني بأمي وجدتي يوم الجمعة، فكانت توقظنا صباح يوم الجمعة على رائحة الفطير المقلي المرشوش بالسكر، ورائحة البخور تلون اللوحة الرائعة من الذكريات، فأنا إيرانية الجنسية، وتذكرت حقيبة أمي التي ملأتها حتى فاضت بثياب جدتي، كنت أسميها كذلك لأنه لا وجود لها إلا في عقلي هذه ثياب الصبر، وهذه هي الطاعة العمياء، وهذا هو الأدب، وهذا الصوت العالي لا يصح، وهذه رابطة عنقي أنت بنت لا يصح، أنت بنت! أنت بنت!

استوقفتني الكلمة بل رابطة عنقي كما أسميها هي حقيبة الأوامر والنواهي، ولم أنس قبل خروجي أن أرتدي ثوبًا من حقيبة جدتي يليق بيومي، وكان لصديقتي الأمريكية حقيبة أخرى، كم كنا نضحك ونحن نتحدث كلاً منا عن حقيبته، كنا نذهب للتسلية؛ نقضي كثيرًا من الوقت معًا، ونتعلم اللغة العربية والإيطالية، كانت هناك بعض الأخوات المتطوعات إلى جانب ياسمين وصوفيا تعدنَّ الكثير من البرامج لنا.

كانت صديقتي الأمريكية ترغب في التعرف على دين التسامح والحب، أعطيتها إيشاربًا كبيرًا أحمله معي دائمًا عند ذهابي إلى المسجد؛ حتى تتعلم الصلاة فوضعته على شعرها الذهبي، ولم يزدها لونه الأزرق إلا جمالاً فوق جمالها حتى إنها كنت تشكي من الأعين

التي تلاحقها، وأغلب هذه العيون لوجوه أفقدتها الوحدة ملامح الحياة الطبيعية، حياة الشتات التي يحياها الكثيرون منهم، فالوطن للنساء والأطفال، والغربة للرجال، دخلنا إلى قاعة النساء الصغيرة الحجم، جلست أصلي وأرفع صوتي حتى تتعلم هي، فكانت تقوم بكل حركة أقوم بها وتردد ورائي الآيات بلسان متعثر، وجلسنا ننتظر وصول النساء لصلاة الظهر، فعما قليل ستمتلئ الغرفة بنساء من كل لون، ولكني فوجئت بأن صديقتي تعتذر لي بعد أن جاءتها مكالمة تليفونية، وأن عليها أن تذهب، وأنها ربما ستعود إذا أمكن لتكمل الدرس معنا.

انشغلت قليلًا من الوقت بعد انصراف صديقتي، وكنت أستمتع مع النساء غير الناطقات بالعربية ويمر الوقت سريعًا لطيفًا في وجودهم.

كان البرد شديدًا في المسجد، وشعرت برغبة في العودة إلى منزلي، وخاصة أن زوجي يعمل منذ الصباح يومًا إضافيًا كما أخبرني - في الغالب - هو يوم إجازته، ولكنه يعمل مكان صديق له مرض فجأة، وربما يعود في أي وقت، سلمت على النساء في الغرفة الصغيرة وخرجت.

وفي الطريق وقفت كعادتي لأستمع لموسيقى الشارع، من يعيش في بلد أوروبي سيعرف أن للشارع نبضًا وحسًا موسيقيًا لا ينقطع أبدًا، الرجل اللبناني الجالس في نفس المكان رغم البرد ما زالت أنامله تعزف دون ملل، استوقفني اللحن الحزين الشجي.

حييته بتحية الصباح بون جورنو! كان يعرفني فهو مسلم يأتي كثيرًا إلى المسجد، ويعود إلى عمله في نثر الموسيقى والبهجة في الشارع، ويجمع القليل مما يهديه له المارة من قطع معدنية ليذهب بعد

ذلك إلى البار ليشتري زجاجات البيرة والتي تتناثر من حوله! يُقال إنه يشرب كثيرًا، ولا يعرف أحد إن كان يشرب هربًا من وحدته وألمه أم هروبًا من ذكرى حبيبته؟

سمعت بعض النساء يتحدثن أنها قُتلت على يد مجموعة من الشباب العنصريين؛ طعنوها وهم سكارى في الليل بعد أن اعتدوا عليها، ويُقال إنه ظل فترة طويلة يعالج جسديًا ونفسيًا من الحادثة.

كانت موسيقاه تحمل كل من يسمعها إلى عالم آخر، تحلق الموسيقى الرائعة، تتعانق كيوبيد وفينري آلهة الحب – كما يقولون – فيسكن من حوله كل شيء إلا الدموع.

كان يغني لحبيبته الراحلة بكل اللغات، وكانت أغنيته لها معزوفة غاية في الروعة كما ترجمها لي وهو يعزف على قيثارته:

أيا ربيعي القادم من زمن الطفولة والصبا
أعطني روحي قبل فوات الأوان
أشتاق إليك فتسقط روحي
من حزن إلى أحزان، من حزن إلى أحزان
عيونك هي ملكي رغم البعاد

ويبدأ البكاء في التناثر من حوله، يبكي كل من يسمع لحنه الحزين، إنه مثال نادر للوفاء! أي وفاء هذا لحبيبته التي رحلت منذ سنوات، لا لم تمت بل هي تحيا كل يوم في عذب ألحانه ودموع قيثارته.

كان البيت حيث اسكن عاليًا جدًا من بيوت عائلة بروتسي العريقة؛ التي يعود تاريخ بنائه لأكثر من ١٥٠٠ عامًا.

كانت تهاجمني الأفكار السيئة والمرعبة كلما تذكرت تاريخ هذه الأبنية كثيرة الدهاليز، وعشوائية الغرف، صعدت السلم بينما تدور أشياء كثيرة إلى رأسي مثل عائلة الحمائم التي تسكن مدفأتي، وما زالت أغنية عازف الكمان تعزف في قلبي.

لم أطعمهم منذ يومين والبرد شديد يجب أن أطعمهم، فتحت الباب وتوجهت مباشرة إلى البلكونة، ووضعت الحبوب في الطبق وانتظرت قليلًا، حاولت نثر بعض الحبوب لكن لا أثر لعائلة الحمائم، تُرى أين ذهبوا في هذا البرد الشديد؟ قطعًا سيعودون.

قررت الذهاب فورًا إلى فراشي الدافئ أختبئ فيه من البرد، ولكني سمعت صوت همسات

توقف قلبي في مكانه؛ إنه عقلي يصور لي الأشباح الرومانية القديمة والرؤوس الملقاة على المقصلة، حاولت أن أبتسم وتصنعت اللامبالاة والغناء بصمت شديد: "أعطني قلبي قبل فوات الأوان"، صعدت درجة أخرى ولكن ازداد الصوت، تحول الخوف داخلي إلى لحظات بين الموت والحياة تقدمت قليلًا رأيتهما. لم تكن أوهام أو خوف.

إنها صديقتي ذهبية الشعر تذوب تختبئ في أحضان زوجي، توقف فيَّ كل شيء، توقف الزمن، توقف قلبي، ثم تحول إلى براكين من الغضب الصامت، لم أحتمل نظرات الرعب في العيون الخضراء، ولم أعرف تلك النظرة القاسية التي طالما أمرتني كالسيد والعبد بالهدوء والاستسلام.

لم أستطع فهم هذه اللحظة، لكنها الخيانة، رفض لساني الكلام، كان يرتدي قيد جدتي رفض أن يفك القيد، حاولت أن أفعل أي شي لم

يستجب لي، صرت أركض السلم بسرعة أقفز كغزالة مذبوحة ترقص رقصة الموت.

أشعر بجسمي يخف من أحماله يكاد يطير بعد أن سقط منه قلبي، وأصبح خفيفا جدًا بهذه الأجنحة التي شقت صدري، وجدتني أطير بخفة، وصعدت إلى الشُرفة العتيقة، وتسلقت السطح رغم الجليد، وصلت إلى المدفأة لأرى الحمامات أخيرًا، وأنا أغني أغنية الوفاء التي يغنيها عازف الكمان.

كم هن جميلات، صغيرات الحمائم كن شبه نائمات رغم الموت تجمدًا من البرد حملتهم في يدي واعتليت أجنحتهم الصغيرة وطرنا معا نتزلج على الجليد، ساعدنا السقف المائل للانسياب

والتحليق في رحب السماء الزرقاء، وأنا ما زلت أغني أغنية الوفاء:

أعطني روحي قبل فوات الأوان

كلما ضاقت بك الدنيا.. حلق على أجنحة الحمائم

لماذا نخاف الألم إنه رفيق رائع يحملنا إلى النضج والحرية.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الإهداء ٥

نبذة عن الكاتبة ٧

١. الهروب من جنة آدم ١١

٢. تراتيل السلام – الجزء الأول ١٧

تراتيل السلام – الجزء الثاني ٢٠

سوق الكانتو – تراتيل السلام – الجزء الثالث ٢٣

تراتيل السلام – الجزء الرابع ٢٨

كاجال– تراتيل السلام – الجزء الخامس ٣١

تراتيل السلام – الجزء السادس – زواج ياسمين ٣٢

تراتيل السلام – الجزء السابع – طواف الوداع ٣٧

٣. الشيميتيرو «المقبرة» ثوب حياة ٤٠

٤. الهاربة ٥٢

٥. ماسيليا ٦٣

٦. القتل المشروع ٧١

٧. الغرباء ٨٠

٨. لقاء ياسمين مع زوجها على الجسر القديم ٨٧

٩. ياسمين ٨٩

الموضوع	رقم الصفحة

١٠. الشيخ ٩٢
١١. عدل جاكشا ١٠٢
١٢. الزوجتان ١١٠
١٣. أحلام ملونة – الجزء الأول ١١٧
أحلام ملونة – الجزء الثاني – الغيبوبة ١٢١
أحلام ملونة الجزء – الثالث الصندوق ١٢٣
١٤. صوفيا ١٢٧
١٥. دمت بعيدًا أيها الحب ١٣٦
١٦. مدينة بلا قلب ١٤٠
١٧. مركب مريم ١٥٠
١٨. خروج الروح ١٥٣
١٩. علاقات قاتلة – في مقابر الحب ١٦٠
٢٠. بدون إزعاج ١٦٥
٢١. الحقيبتان ١٦٩
٢٢. عودة أنثى ١٧٣

❋ ❋ ❋